خطيب بدلة - إياد جميل محفوظ

المُسْتَطْرَفُ اللَيْلَكي

ديوان الطرائف المعاصرة

دار نون للنشر

56 B5

المُسْتَطْرَفُ اللَيْلَكي

خطـيب بـدلة - إياد جميل محفوظ

المُسْتَطْرَفُ اللَيْلَكي

ديوان الطرائف المعاصرة

دار نون للنشر

عنوان الكتاب: المستطرف الليلكي

اسم الكاتب: خطيب بدلة - إياد جميل محفوظ

الغلاف والإخراج الفني: الناصري

الطبعة الأولى 2013

دار نون للنشر

ISBN: 978-91-87373-07-7

©دار نون للنشر

ص.ب ٤٠٠٤٤ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

www.dar-noon.com

© جميع حقوق الطبع محفوظة لدار نون للنشر بموجب عقد مع المؤلف. لا يُسمح بإعادة إصدار أي جزء من الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون الإتفاق مع المؤلف ودار النشر. يجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة الرجوع إلى الدار أو المؤلف الأصلي.

على ذكر (الليلك)

والله لو بحتُ بأي حرفٍ
تَكَدَّسَ الليلكُ في الدروبِ

نزار قباني

مقدمة الكتاب

بقلم: خطيب بدلة

أتوسل، لدى اضطراري لكتابة مقدمة لكتاب ما، القاعدةَ الذهبية التي وضعها أجدادُنا العرب حينما قالوا: "خير الكلام ما قل ودل".. وقالوا: "البلاغة الإيجاز"..

بإيجاز: بدأتُ، اعتباراً من سنة (٢٠١٠)، بإصدار كتاب كبير مُجَزَّأ، يحمل عنواناً عريضاً هو (ديوان الطرائف المعاصرة).. وتلافياً لترقيم أجزاء الكتاب أسميتُ الجزء الأول: (المستطرف الأزرق) - دار نون ٤ بحلب (٢٠١٠) - والثاني (المستطرف الأخضر) - دار جداول ببيروت (٢٠١١)..

صديقي القاص إياد جميل محفوظ فاجأني، بعد اطلاعه على (المستطرف الأزرق)، بأن لديه ميلاً إلى كتابة بعض الطرائف مما مر به خلال حياته.. وبالأخص حينما كان واحداً من أبرز لاعبي كرة السلة في سورية.. أو مما سمع من أقربائه وأصدقائه.

سألني على استحياء:

- هل هذا ممكن؟

قلت له: طبعاً ممكن.. فكتابةُ الطرائف ليست حكراً علي، أو على أحد غيري.. ولدينا قائمة طويلة ممن اشتغلوا في صناعة الطرائف، وجَمْعِها، وتدوينها، وإصدارها في مؤلفات حازت شهرة واسعة.. كالأبشيهي، وابن الجوزي، وأبي فرج الأصفهاني، والجاحظ، وأبي حيان التوحيدي، وعزيز نسين، وهادي العلوي، وبوعلي ياسين..

ومن أبرز الكتاب الذين اشتغلوا في موضوع الطرائف العلامة الحلبي الكبير خير الدين الأسدي، فقد جمع، في كتابه الفريد (موسوعة حلب المقارنة) عدداً لا يستهان به من الطرائف.. ثم طُبع كتابه (الفَوات) متضمناً الطرائف التي حالت دوائر الرقابة دون نشرها ضمن الموسوعة.. فكان درة فريدة في عالم الطرائف.

ولو أنك تتمعن قليلاً في قصص أنطون تشيخوف، لوجدتَ أن معظمها مبنية على طرفة ما، ثم يأتي تشيخوف، بمقدرته الفذة على بناء القصة، وإكسائها بالتفاصيل والزخارف الفنية الممتعة، فيرفعها إلى مستوى الفن الرفيع.. الخالد.

قال: ما رأيك أن تتشارك في تأليف الكتاب.. وأن يدخلَ مُؤَلَّفُنا ضمن سلسلتك (ديوان الطرائف المعاصرة)؟

قلت: يا لها من فكرة.. بل إنها لتجربة جديرة بالاهتمام..

وأرسل إلي الطرائف التي كان قد أنجزها..

وكان هذا الكتاب الذي لا يمكن لابن امرأة أن يعرف قيمته قبل أن تتفضلوا، حضراتكم، بقراءته، والحكم عليه..

* * *

صديقي إياد

كتب خطيب بدلة:

برأيي المتواضع.. أن أجمل الطرائف والسخريات، وأكثرها ظرفاً، وعدلاً، وإنصافاً، هي تلك التي يسخر الكاتبُ فيها من نفسه، حتى ولو على سبيل الدعابة.. ولنا في كبير الهجَّائين العرب الجاهليين "الحطيئة"، الذي هجا نفسه، أسوةٌ حسنة.

صديقي، وشريكي في هذا الكتاب، الأستاذ إياد جميل محفوظ، لا يشذ عن هذه القاعدة، فهو يفتتحُ كتابه بطرفة من هذا القبيل..

وللتوضيح، ولكي نفهم طرفته جيداً، أقول: إياد رجلٌ طويل القامة (وقد كان لاعب كرة سلة وما أدراك!).. وقد أفقده الزمانُ جزءاً كبيراً من شعر رأسه على نحو مبكر..

* * *

صديق مال أنا

كتب إياد جميل محفوظ:

في طريقي إلى منزلي بمدينة "العين" الإماراتية بقالة قديمة صاحبها يُدعى (أكبر).. ويديرها فتى اسمه عبد المجيد.

أصبحتْ تلك البقالةُ محطةً أزورها يومياً قبل ذهابي إلى البيت.. كانت أشبه بسوبر ماركت صغير.. تستطيع أن تجد فيه لبن العصفور،.. كما يقولون.

نَمَتْ علاقةُ ود لطيفة بيني وبين عبد المجيد حتى إنني أصبحتُ أناديه، تحبباً: (مجيدة).. وغدتْ تلك العلاقةُ مع الأيام رابطةَ صداقة من نوع فريد.. وبتُّ أتعمد المرور على البقالة حتى ولو لم أكن بحاجة لأية مشتريات.

وبات من الطبيعي ألا أشعر بالحرج من "مجيدة" في حال احتجتُ إلى بعض المستلزمات وأنا لا أحمل نقوداً.. فقد كنت أطلب منه أن يسجل قيمة المشتريات في الدفتر على أن أسددها في وقت لاحق.. وكان يستجيب عن طيب خاطر..

تكرر هذا الأمر خلال سنوات عديدة مرات ومرات.

وفي إحدى زياراتي له، وبينما كنت أدفع له حساباً سابقاً، إذ خطر لي أن أوجه إليه سؤالاً طالما راودني.. قلت له، مستخدما طريقته المكسرة في الخطاب:

- مجيدة كم سنة أنت يعرف أنا؟

قال:

- ممكن عشرة سنة.

قلت:

- زين إنت في معلوم اسم مال أنا؟

قال:

- لا.. لاكن أنت صديق مظبوط.

قلت:

- مجيدة.. إنت أيش يكتب اسم مال أنا داخل دفتر؟

حينئذ ارتسمتْ ابتسامةٌ خجولة على وجهه الصغير.. فبادرته قائلاً:

- كلام صحيح.. خَبَر ما في مشكلة.. لاكن أنت أيش يكتب اسم مال أنا؟

لاحظ إصراري على معرفة الجواب، فقال بصوت لا يخلو من حياء:

- أنا يكتب: صديق مال أنا.. نفر طويل.. شعر ما في!

* * *

رموز المتعاملين

كتب خطيب بدلة:

الطرفة التي أوردها صديقي إياد- أعلاه- فتحت ذاكرتي على سيل من الطرائف المشابهة لها.. فالصديق الراحل برهان بخاري (أبو عرفان) حدثني عن لحّام أخرس كان يعمل في حارتهم بدمشق أيام الصبا.. وكان معظم أهالي الحارة يشترون اللحم من دكانه بالدين (على الدفتر)..

وفي يوم من الأيام دفعه الفضول لكي يعرف كيف يسجل اللحامُ الأخرس أسماء الزبائن.. فوجد أنه يتعامل بالرسم بدلاً من الكلمات.. فكان يرمز لعائلة (الزنابيلي) برسم لزنبيل فارغ!!.. ويكني لعائلة النجار برسم لرجل يحمل المنشار.. ولا أسهل عليه من رسم إحدى عظام الخروف للكناية عن آل (العظمة).. وأما عائلة (البخاري) فكان يرمز لها بقدر صغير يتصاعد منه البخار!!..

أبو السماعة

وكنت قد أوردتُ في كتابي (المستطرف الأزرق) طرفة عن صديقي (وأستاذي) الراحل محمد نور قطيع "أبي النور" الذي أصبح يعاني، في آخر حياته، من نقص حاد في السمع، ويضع سماعة طبية كبيرة في أذنه اليسرى، وذات مرة طلب من بائع الخبز أن يسجل له دَوْراً لشراء ربطتين من الخبز.. فامتثل البائع لطلبه دون أن يسأله عن اسمه، وعند استلامه ربطتي الخبز اكتشف أن البائع رمز له بعبارة (الأطرش أبو السماعة).. فضحك "أبو النور" وقال له:

- وهل يوجد طرشان من دون سماعات؟

فرد عليه البائع بجدية تامة: طبعاً.. وما أكثرهم!

أبو الجزمة

وأما صديقي أبو مصطفى من بلدة معرتمصرين فحدثني بشيء غريب. قال لي:

- لقد توفي والدي- رحمة الله عليه- في سنة (١٩٥٥)، وكان يعمل بقالاً.

بعد أن انتهينا من مراسم الدفن، وأيام العزاء الثلاثة، جلسنا أنا وإخوتي لنقتسم تركته.. وكانت عبارة عن أشياء بسيطة: دار السكن والبقالة.. إضافة إلى مبلغ مئتي ليرة عبارة عن ديون على الناس مدونة في الدفتر.. ولعلمك فإننا سررنا بوجود هذا المبلغ في رصيدنا، ففي تلك الأيام كان يُعَدُّ مبلغاً كبيراً يكفي لشراء دار سكن أو دكان أو قطعة أرض أو منشأة تجارية..

قلت:

- عظيم.

قال:

- ولكننا لم نستطع أن نحصل منه قرشاً واحداً!

قلت:

- لماذا؟

قال:

- لأن والدي كان يكتب صفات المدينين بدلاً من أسمائهم.. ففي الدفتر عشر ليرات مستحقة على (أبو الجزمة) وخمس ليرات على (أبو البريم) وليرتان على (أبو الشوارب) وثلاث ليرات على (أبو الخال) وتسع ليرات على (أبو الخصر الأعوج).. وهكذا..!!

زبائن على مستوى

الحقيقة أن معظم الناس، في الزمن القديم، كانوا يشترون ما يلزم لهم، شتاءً، من الدكاكين، بالدين، على أن يكون التسديد صيفاً (على الموسم).. وكان صاحب الدكان إما أمياً كاملاً، كوالد صديقي أبي مصطفى، أو أنه قادر على الكتابة، ولكن خطه (مفشكل)، ولا يعرف من مفردات الكتابة غير بضع الكلمات التي تلزم له في تسجيل المبيعات الآجلة، أو أنه يكتب ويحسب على نحو جيد.. وهذه الحالة الأخيرة كانت نادرة..

وكان، في بلدة إدلب، (دكنجي) يدعى أبا نبهان، وهو من الصنف الأول، أعني الأمي الكامل الذي لا يجيد قراءة ولا كتابة، ولكنه كان يتمتع بذاكرة خارقة، فهو يحفظ أسماء الأشخاص الذين اشتروا من عنده خلال النهار، ويتذكر الكمية التي اشتراها كل واحد منهم، من كل صنف بضاعة، بدقة، وقبل أن يُغلق الدكان، في المساء، كان ينادي أيّ فتى من أبناء الحارة الذين يتعلمون في المدارس، ويفتح له الدفتر، ويناوله قلم (الكوبيا) ويملي عليه تفاصيل المبيعات الآجلة المذكورة..

وفي ذات يوم حضر لزيارته معلم مدرسة من أصدقائه، فطلب منه أن يراجع له المبيعات المسجلة في دفتر الدين، وأن يُجري له بعض الترتيبات والتصنيفات إذا احتاج الأمر..

فتح المعلم الدفتر وشرع يقرأ ببصره، وشرعت علائم الدهشة ترتسم على وجهه.. فقال له أبو نبهان قلقاً:

- خير أستاذ؟ أيش مكتوب في الدفتر؟

قال المعلم:

- أشياء غريبة فعلاً.. مكتوب أنك بعت بعشرين قرش سوري لبن بقر لجمال عبد الناصر، وبخمسة عشر قرشاً سورياً(خيطان سلوك) لعبد الله السلال، ولك في ذمة أحمد بن بلا ربع ليرة سورية ثمن بلورة كاز نمرة أربعة، وأما المشير

عبد الحكيم عامر فهو مقترض من عندك ما قيمتُه ستة فرنكات سورية ثمن نكاشات بابور! و..

أدرك أبو نبهان أن أحد الفتيان (الزعران) قد سجل له هذه الأسماء من باب (الزعرنة) والإيذاء.. فلم يَدَعْ صديقه يكمل قراءة قائمة الديون.. أغلق الدفتر بهدوء، وقال له:

- إذا كان هؤلاء زبائني فأنا لازم أسكر دكاني..!!

وسكرها بالفعل.

* * *

الجماهيرية

كتب إياد جميل محفوظ:

كنت أحد لاعبي نادي الاتحاد (حلب الأهلي) بطل سورية بكرة السلة حين وُجهت إلى نادينا دعوةٌ للمشاركة في دورة رياضية ستقام في ليبيا ضمن احتفالات أعياد الفاتح من سبتمبر (أيلول) عام (١٩٨٠).

شعرنا بسعادة لا توصف بسبب هذه الدعوة العظيمة، فقد كان فريقُنا هو الفريق العربي الوحيد الذي شُرِّف باختياره لخوض غمار هذه الدورة العظيمة.. فضلاً عن أنها ستتيح لنا زيارة بلد المناضل الكبير عمر المختار التي غدت- الآن- جماهيرية العقيد معمر القذافي الذي وصفه جمال عبد الناصر ذات يوم بأنه يرى فيه شبابه!!!.. إضافة إلى أن هذه الدورة ستوفر لنا مقابلة فرق كبيرة تتمتع بسمعة طيبة ومستوى رفيع من دول أوربية عريقة بلعبة كرة السلة كاليونان وإيطاليا ويوغوسلافيا.. وتجعلنا نطَّلع على مستوى كرة السلة الليبية.

سارت الأمور بشكل طبيعي ورائع في اليومين الأوليين، ولعبنا مباريات قوية مع الفرق الأوربية، وحققنا نتائج جيدة.

إلا أن ما حصل في اليوم الثالث لم يكن متوقعاً على الإطلاق.. ففي هذا اليوم كان موعد اللقاء مع الفريق الليبي وفق البرنامج المعد سلفاً للدورة.

نزلنا، نحن أعضاء الفريقين، إلى أرض الملعب قبل عشرين دقيقة، كما جرت العادة، للقيام بعملية الإحماء استعداداً للمباراة.. وقبيل بداية اللقاء بدقائق قليلة حدثت المفاجأة التي لا يمكن أن تخطر ببال.. إذ ظهر، على حين غرة، رجلٌ

بدا غريباً عن أجواء المباراة.. عرفنا فيما بعد أنه أحد قادة "اللجان الثورية الليبية".

تقدم الرجل نحو وسط الملعب.. نادى الحكام ومدربي ولاعبي الفريقين بصوت جهوري للتحلق حوله وسط الميدان.. ثم خاطبنا، بنبرة واثقة، حاسمة، موضحاً أنه لا يجوز على الإطلاق أن يتبارى (يتخاصم) فريقان عربيان!!.. ومن أشد أسباب العار أن يحدث هذا على تراب الجماهيرية العظمى!

ثم توالت المفاجآت حين طلب الرجل من لاعبي فريقنا أن يخلعوا قمصانهم الحمراء.. ومن أفراد الفريق الليبي أن ينزعوا قمصانهم الخضراء.. وبعد ذلك أمر لاعبي الفريقين أن يختلطا فيما بينهم.. ومن ثم صنع من المزيج فريقين عربيين جديدين بحلة غريبة عجيبة.. على نحو أصبح فيه كل فريق من الفريقين يتكون أفراده من اللاعبين السوريين واللاعبين الليبيين مناصفة!

وهكذا بدأت المباراة أمام جمهور فاضت روحُه بالمرح وتراقصت على شفاهه الضحكات الساخرة..

وشعرنا، حينذاك، أننا غدونا دمى بلهاء تقوم بأداء عرض هزلي!

* * *

أنظمة ظريفة طريفة

كتب خطيب بدلة:

الطرفة المدهشة التي أوردها صديقي إياد لا يمكن أن تحصل إلا في دولة ذات نظام ديكتاتوري، شمولي، يتصف بعبادة الفرد، وثقافة القطيع.. كالنظام الليبي أيام القذافي، أو النظام العراقي أيام صدام حسين، أو النظام السوري الذي أسسه الجنرال حافظ الأسد.. أو النظام الشمولي الحاكم في كوريا الشمالية، إضافة إلى أنظمة الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية البائدة..

والحقيقة أن الأنظمة الشمولية هي منبع ثر للطرائف، بل إن وجود بعض بقاياها، في القرن (٢١)، عبارة عن طرفة قائمة بذاتها!!

ومن أطرف ما تشترك به هذه الأنظمة هو أنها تلغي الحياة السياسية، والأحزاب في البلاد.. وهي تَعْتَبِرُ العملَ السياسي (خارج المؤسسة الحاكمة) خيانةً عظمى، بدليل أن القذافي (العبقري!!) كان يقول: مَنْ تحزب فقد خان!.. ونعتَ أبناءَ شعبه الذين خرجوا بمئات الألوف طالبين رحيلَه بنعت (الجرذان!).. وحينما سئل صدام حسين عن المعارضين العراقيين الذين نَخَّتْ عظامُهم، وتهرأت أوراحُهم في أقبيته العفنة قال:

- إحنا ما كو عندنا معارضة ولا مُعارضين.. أكو شوية عملاء يلقون جزاءهم العادل في السجن!

ومن طرائف صدام حسين أنه الوحيد في العالم الذي نجح في آخر استفتاء قبل الإطاحة به بنسبة ١٠٠٪ !! (يعني.. ومع أن عدداً كبيراً من الناس لا

يؤمنون بالله تعالى.. فإنه لا يوجد أخو أخته واحد في العراق كلها يقول- لا- لهذا الطاغية، وحينما سقط تبين أن الذين يحبونه قلة.)!

وأما الجنرال حافظ الأسد فلم يكن سهلاً عليه إلغاء الحياة السياسية في سورية بالكامل، فما كان منه إلا أن اخترع الجبهة الوطنية التقدمية التي ينص ميثاقُها على أن يكون حزب البعث قائدها، وهذا ما حمل الناس على الاستهزاء بها قائلين:

- دكان الجبهة الوطنية التقدمية لصاحبها حزب البعث العربي الاشتراكي!

صاحبها القائد الرمز

لا شك أن الطرفة السابقة جيدة، ولكنها تفتقر إلى الدقة، والمفروض أن يقال، لكي يستقيم المعنى:

- دكان الجبهة الوطنية التقدمية لصاحبها القائد الرمز حافظ الأسد..

(باعتبار أن حافظ الأسد دجن حزب البعث، مثلما دجن الأحزاب الأخرى، وألحقه بأجهزته الأمنية الرابية).

صورة القائد الرمز

ذات مرة عقد الحزب الشيوعي السوري (وهو أكثر الأحزاب السورية عراقة، فقد تأسس في العشرينيات من القرن العشرين) مؤتمَرَه السنوي في إحدى القاعات الكبيرة بفندق "صحارى".. وجاء الرفيق المكلف بإجراء الترتيبات الفنية (والبروتوكولية) ليرتب القاعة، فوجد صورة القائد الرمز حافظ الأسد معلقة في وسط الجدار!!.. وكان لا بد له أن يرفعها ليضع مكانها شعار الحزب الأممي العريق. ولكنه لم يجرؤ على ذلك.. فذهب إلى الرفيق سكرتير إحدى المنطقيات، وعرض عليه المسألة (بل المعضلة).. فاقترح عليه هذا الرفيق عرض الأمر على أحد أعضاء اللجنة المركزية، ففعل، ثم عرضه على أحد أعضاء المكتب السياسي، ثم وصلت القصة إلى الأمين العام (وربما علمت بها زوجته.. وابنه.. وابنته،

وصهره).. وأجلوا الاجتماع إلى اليوم الثاني.. ووقتها وقف أحد الرفاق الشيوعيين الحقيقيين وقال:

- أخي.. بعدوا من طريقي.. أنا بودي أشيل الصورة! ومن سيعترض على ذلك بدي أشيل عينيه!

ولكن.. هل انتهت المعضلة؟

كلا.. فقد منعوه من إنزال الصورة، بالطبع.. لأن الملامة التي ستأتي، من قبل المخابرات في اليوم التالي، ستكون موجهة إلى القيادة.. لا إلى الشيوعيين الأنفار.. وإلا لماذا أسموها قيادة؟

المهم أن المؤتمر عقد في القاعة ذاتها التي تتوسطها صورة الجنرال حافظ الأسد.. وهو مبتسم!.

فنون توجيهية

في الأنظمة الشمولية- ويا للطرافة!- يرى المرءُ كل شيء متحداً، ومنسجماً مع نفسه،.. ونظامياً..

كان لدينا شاعر ينظم أبياته كلها ضمن مفهوم التوحد، والاتفاق، والانسجام، والوحدة العربية، والوحدة الوطنية، واللُحمة الوطنية، ويفتخر بانتفاء الرأي الآخر من ساحة شعوره، ولاشعوره أيضاً.. وكنا نسميه (الشاعر النظامي)!!..

روى لي الصديق الشاعر الدكتور (بسام ح) حادثة جرت له حينما ذهب لخدمة العلم، برتبة ملازم مجند، وأُفرز إلى سجن تدمر (السجن غير السياسي وقوامُه الفارون من خدمة العلم)..

قال بسام:

- السجين في هذا السجن يُضربُ ويهان حوالي مئة مرة في اليوم.. إنه مسخة حقيقية.. ذات يوم، كنا نمشي أنا وملازم أول متطوع في ساحة السجن، وإذا به يعثر على سجين ذي جسم ضخم وعقل خفيف. أشار له بيده أن يأتي، فركض

نحونا مسرعاً، وأدى التحية بقوة، ووقف أمامنا بِذُلّ معتاد.

تركه الملازم أول واقفاً أكثر من خمس دقائق على هذه الحالة.. ثم قال له:

- هل تعلم، يا حمار، أن هذا، الملازم بسام.. شاعر؟

صاح السجين:

- لا أعلم ذلك.. سيدي الملازم أول.

قال له برقة مفاجئة:

- طيب يا ابني.. طالما أنك عرفت أنه شاعر ماذا يجدر بك أن تفعل؟

قال:

- أفعل ما تأمرني به فقط.. سيدي الملازم أول.

قال الملازم أول:

- هيا يا بني.. اقرأ له قصيدة (توجيهية)!!

فانطلق لسانه يقرأ القصيدة المطولة التي ألفها الجواهري في مديح حافظ الأسد.. ولم يتوقف عن القراءة الببغاوية حتى طلبتُ منه ذلك!!

مداح القمر

حقيقةً، لم يدع الشاعر محمد مهدي الجواهري ملكاً، أو رئيساً، عادلاً، أو مستبداً، إلا مدحه، وقد وصل به هوس المديح إلى حد أنه مدح: محمد علي كلاي!!!..

اقرأ ديوانه الذي طبعته وزارة الثقافة السورية لتتأكد من ذلك.

سلسلة من المفاجآت

كنا نُدعى، بعضُ الأصدقاء الأدباء وأنا، لإقامة أمسيات أدبية في المراكز الثقافية المنتشرة في المناطق التابعة لمحافظة إدلب، وأحياناً ندعى إلى مراكز

ثقافية في محافظات أخرى.

وكنا نرفض تلبية أية دعوة تصادف في شهر آذار/مارس تلافياً لمناسبة الثامن من آذار (انقلاب البعث ١٩٦٣).. أو في نيسان أبريل، درءاً لشبهة الاحتفال بعيد ميلاد حزب البعث، (١٩٤٧/٤/٧) أو في تشرين الثاني نوفمبر لئلا يضمنا المحتفلون بالحركة التصحيحية (١٩٧٠/١١/١٦) إلى قطيعهم..

وكنا نعتمد في رفضنا الاشتراك في هاتيك الأمسيات أسلوب المراوغة.. لأن المصارحة، في تلك الأيام، لم تكن تؤدي إلى بر الأمان.

ومرة، دعينا في شهر كانون الأول / ديسمبر إلى أمسية في إحدى المدن التابعة لمحافظة إدلب.. وهو شهر نظيف تماماً من المناسبات، فلبينا الدعوة بلا تردد.

كان يحضر أمسياتنا، في الأحوال العادية، خمسون شخصاً تقريباً.. ولكننا فوجئنا، أثناء دخولنا قاعة المركز الثقافي، بوجود عدد كبير من الجمهور، قد يصل إلى ثلاثمئة شخص، وبينهم، خلافاً للعادة، سيدات.. وفوجئنا، أيضاً، أننا لم نكن وحدنا، فثمة شاعر مغمور من أبناء المدينة نفسها، اسمه (مصطفى ق) قد أدرج اسمه معنا..

المفاجأة الأكبر كانت حينما صعد الأستاذ محمد مدير المركز وقدم للأمسية قائلاً إنها أقيمت بمناسبة مرور ثلاث سنوات على استشهاد الرائد الركن المظلي الفارس الذهبي باسل حافظ الأسد.. وقدم الشاعر ليكون فاتحة خير في هذه الأمسية المظفرة.

التفت إلي صديقي الأديب الراحل تاج الدين الموسى وقال لي:

- تعرضنا لمقلب مرتب بطريقة لئيمة.. فإذا بقينا جالسين هنا ستتمرغ أسماؤنا بالوحل، وأنا شخصياً بدأت، من الآن، أذوب خجلاً من نفسي.. وإذا انسحبنا سنكون في الصباح ضيوفاً غير أعزاء على فرع الأمن العسكري، لأننا أعلنا موقفاً من ذلك الفتى الشهم الذي استشهد وهو يقود سيارته بسرعة ٢٥٠ كيلومتر في الساعة على طريق المطار. ما رأيك؟

قلت:

- أسماءنا نظيفة إلى درجة أن عشرين موقفاً فجائياً كهذا لا يستطيع تلويثها.. دعنا نتابع ولنرى.

قبل أن يباشر الشاعر مصطفى ق بإلقاء قصيدته قال:

- الحقيقة يا شباب، أنا، يوم استشهد الرفيق الرائد الركن المظلي المهندس باسل الأسد، تأثرتُ كثيراً، لأن يد الموت قد اختطفته وهو في ريعان الصبا، وفي أوج العطاء.. فكان استشهاده خسارة للوطن العربي السوري والأمة العربية جمعاء..

وأثناء إلقائه للقصيدة، وهي مؤلفة من مئة بيت (عدا الفراطة)، حصل الموقف المضحك المبكي الغريب التالي: السيد مصطفى ق.. انفلت ببكاء مرير.. تشهشه، مسح دموعه، ومسح منخاره، وتمالك نفسه، واستعاد رباطة جأشه، وأكمل القصيدة، دون بكاء فعلي، ولكن، بصوت باك.

انتهى مصطفى ق من الإلقاء، ونزل عن المنبر، واتجه ليجلس على أحد الكراسي الشاغرة.. ووقتها حصل أمر مدهش آخر.. إذ دخل فريق الفضائية السورية الذي كان يقوم بجولة في المنطقة، وسمع بأمسيتنا فجاء يغطيها..

وبينما أنا أهمسُ لصديقي تاج:

- (الآن أصبحت فضيحتنا بجلاجل)!.. كان مصطفى ق يهمس لمدير المركز قائلاً: أيرضيك يا محمد؟ يرضيك أن أقوم أنا بكل هذه الجهود، وأبكي مثل الأرملة المقطوعة.. ولا تظهر صورتي غداً على الفضائية السورية؟.. أرجوك يا محمد، أبوس يدك، دعني ألقي قصيدتي مرة ثانية.

استجاب محمد لتوسلات مصطفى، وقدمه للجمهور مرة ثانية، موضحاً أن من حق مصطفى أن يحظى بنصيبه من (التصوير) أثناء القراءة!

ألقى مصطفى ق قصيدته مرة أخرى، وحينما وصل إلى موقع البكاء على الغالي باسل، لم تطاوعه الدموع.. حاول كثيراً، عصر نفسه، دون جدوى..

أحد الأصدقاء الأدباء التفت إلي وهمس لي قائلاً:

- ابن الكلب.. ماذا جرى معه؟ قبل قليل كان يبكي مثل أم ثكلت ابنَها .. الظاهر أن دمعته احترقت!

قصيدة أخرى

وبما أن سيرة الشعر قد فتحت..

لي صديق محام اسمه محمود ك، تعرفت عليه في أحد المقاهي بحلب، وهو في الثمانين من عمره، أي أنه يكبرني بعشرين سنة. ذات مرة قال لي:

- حينما تكون الأمور في دولة ما غير طبيعية، تجد سلوك معظم الناس غير طبيعية.. خذ ذلك الشخص الجالس في زاوية المقهى، المنخرط في مطالعة الإنترنت من خلال اللابتوب مثلاً..

قلت:

- ما اسمه؟

قال:

- (عدنان ج).. وهو رجل عجيب أكثر مما تستطيع أن تتخيل.

قلت:

- ما حكايتُه؟

قال:

- قبل بضع سنوات، كنا نجلس، هنا، إلى هذه الطاولة، بقرب المكيف، مع مجموعة غير متجانسة من الناس.. وبدأ بعضهم يلقون بعض النكات، كما هي العادة في جلسات المقاهي.. فتحمس هو وألقى نكتة عن الجنرال حافظ الأسد!

قلت:

- ما هي؟

قال:

- قبل أن أسمعك النكتة اعلم أن الفساد في سوريا، خلال حقبة الثمانينيات، قد بلغ حداً فظيعاً، والتضخم النقدي الناجم عن طباعة حكومة الأسد لأوراق مالية من دون رصيد قضى على الحد الأدنى لمعيشة السوريين..

ولأنهم لا يجرؤون على القيام بأي فعل، أو التلفظ بأي كلام، أو انتقاد، فقد جلسوا ينتظرون أن يُلهم الله تعالى الجنرالَ بتقديم بعض الإصلاحات، أو أن تجود نفسه بزيادة رواتب الموظفين والمتقاعدين.. وحينما أُعلن في أجهزة الإعلام أن الأسد سيلقي خطاباً في (مجلس التصفيق) تجمهروا أمام شاشات التلافيز متأملين بأن يأتيهم الفرج عبر الخطاب.. ولكن.. ماذا فعل؟

قلت:

- ماذا؟

قال:

- تحدث في الخطاب عن المواطن غير المسؤول الذي يخرج من مكتبه دون أن يطفىء مصباح الكهرباء، وعن ذلك المواطن الذي يسمح لحنفية الماء بأن تنقط وتهدر الماء ولا يأخذها إلى السباك ليُركب لها (جلدة).. وقال إن علينا أن ننظر إلى هذا الشخص المهمل بالازدراء والاشمئزاز..

قلت:

- والنكتة؟

قال:

- وعد حافظُ الأسد، وهو على فراش الموت، ابنَه بشار أن يأتيه في المنام خلال أسبوع من وفاته.. ولكنه تأخر أكثر من أربعة أشهر، فلما أتاه في المنام عاتبه بشار على التأخير فقال: اعذرني يا ولدي.. فملائكة الحساب طيلة هذه المدة كانوا يسألونني عن إحدى حنفيات القصر الجمهوري كنت شاهدتُها تنقط ولم

أهب لتغيير جلدتها!

ضحكتُ وقلت:

- بجد.. حلوة.

قال:

- ولكن أحد الشرفاء الذين كانوا حاضرين معنا في تلك الجلسة كتب بحق السيد (عدنان ج) تقريراً من كعب الدست، فغاب عن ناظري، ولم ألتق به إلا بعد أربع سنوات أمضاها في سجن تدمر تحت التعذيب والقهر.. أريد أن أسألك.. ألا يجدر بهذا الرجل أن ينقم على نظام الأسد؟

قلت:

- طبعاً.

قال:

- ولكنه، في أول لقاء لنا معه بعد الاعتقال، ألقى علينا قصيدة مديح..

قلت مندهشاً:

- مديح؟ لمن؟

قال:

- لحافظ الأسد، وجميل الأسد، والسيدة ناعسة، والسيد عدنان مخلوف، والشهيد باسل، والوريث بشار، والسيدة بشرى، والعميد ماهر، والسيد مجد..

قلت:

- الله أكبر!.. طيب وأنت.. ألم تقل له إن هذا العمل لا يليق به؟

قال:

- أنا لم أقل شيئاً. بصراحة؟ خفت أن أحتل مكانه في سجن تدمر.. وأما صديقنا أبو فادي فقد رد عليه..

قلت:

- كيف رد عليه؟

قال:

- أبو فادي تناول منه الورقة التي كتب عليها القصيدة، وتفحصها، وقلبها على الوجهين، ثم أعادها إليه وهو يقول:

- بودي أفهم.. أهذه قصيدة شعرية.. أم وثيقة (حَصْر إرث)؟!!!

جرعة زائدة

في تلك الحقبة العصيبة، حقبة الثمانينيات، اعتقل صديقي الشاعر (ن)، من قبل جهاز الأمن العسكري بدمشق، وألقي في فرع فلسطين، وكان ذلك بسبب تناوله جرعة صغيرة من (عَرَق الريَّان) زائدة عن الحد الفاصل بين الصحو والسكر.

إن صديقي (ن)، بلا أدنى شك، واحدٌ من أهم شعراء سوريا في العصر الحديث، وهو عصبي، غضوب، ولكنه، كغيره من السوريين المقموعين، يعرف كيف يضبط نفسه عند الغضب، لئلا يصبح- على حد تعبير نجيب الريحاني- في خبر كان.

لقد طغت على الساحة الصحفية، في تلك الحقبة، موجة الكلام الموزون المقفى المخصص لمديح حافظ الأسد، الذي يصر ناظموه على تسميته (شعراً).. وهذا الأمر كان يَقْلِقُ (نون)، ويجعل جوزة حلقه تطقطق من شدة الغيظ.. ومع ذلك كان يسكت.

وفي يوم من الأيام أسرَّ لصديقه، وجاره في الشغل (أبو عبدو الشامي) بما ينوي فعله هذه الليلة.

قال له:

- اليوم سأسهر في مطعم الريس.. حيث يسهر أولئك الأنذال الذين يتعيشون من وراء الأوزان والقوافي، يوظفونها في المديح المجاني الكاذب، فيسيئون للشعر العظيم. المهم، سأتناول أنا أقل من نصف ليتر من (عرق الريان)، وهذا الحد يحقق لي من النشوة ما يكفي لأن أوبخ الشعراء (البشوت)، دون أن أتركهم يتصيدوني بتقاريرهم الأمنية الحقيرة.. لقد رَكَّزْتُ في ذهني، من الآن، ما أستطيع أن أقوله، بأمان، وما يجدر بي أن أتحاشاه..

وصل (نون) القول بالفعل.. شرب القسم الأكبر من الزجاجة، فانتشى، والتفت نحو الشعراء المتوزعين على الطاولات.. وقال:

- ايه. أنتم.. يا شعراء المناسبات والولائم.. أيها الشحاذون الطفيليون،يا وسخ المكاتب والدواوين والممرات والردهات، يا ماسحي أرض بلاط السلاطين بمؤخراتكم وأكمامكم.. أيها المنافقون المتكسبون.. ولاه.. قولوا لي بصراحة.. لماذا تمدحون السيد الرئيس حافظ الأسد؟آ؟ ألا تعرفون أنكم، بهذا الكلام المنظوم، الركيك، البائس تسيئون للسيد الرئيس؟.. تسيئون له- فقط- من أجل أن يأمر محاسب القصر بأن يتصدق عليكم ببعض النقود لقاء أكاذيبكم..

(توقف ن عن الكلام فجأة، كرع جرعة كبيرة مما تبقى في الزجاجة، دفعة واحدة وقال ..) .. ولكن هذا الرئيس لا يزعل منكم.. الظاهر أنه لا يعرف أن شعركم التافه هذا يسيء إليه.. بالعكس، هو مبسوط على هذا الحكي، ويريد منه المزيد.. لماذا؟ لأن هذا الرئيس الـ..

ولم يكمل (ن) بقية الخطبة.. إذ سرعان ما تقدم منه بعض رجال الأمن المتواجدين في المكان.. أشهروا عليه السلاح، وكمموا فمه، وكبلوه، وأخذوه.. وخرجوا.

* * *

جمعية التنمية الاجتماعية

كتب إياد جميل محفوظ:

اقترح محافظ حلب،في زمن بعيد، اسمي لأكون واحداً من مؤسسي "جمعية التنمية الاجتماعية في حلب".. وكان متحمساً للفكرة إلى أبعد الحدود.. وانتقى أعضاء الجمعية التأسيسية من أناس ينتمون إلى شرائح اجتماعية متنوعة، ويحظون بالاحترام والسمعة الحسنة في المحيط الحلبي.

وتابع المحافظ، بنفسه، إجراءات الحصول على الترخيص من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل..

غير أن وثائق ترخيص الجمعية كانت تعاد، بالبريد، إلى محافظة حلب، مرة كل شهرين أو ثلاثة، لأسباب واهية حيناً، وغامضة في أحيان أخرى..

وكنا نعتقد أن هذه العرقلات لا قيمة لها، ناجمة عن الروتين الإداري.. إلا أن وزارة الشؤون أفصحت عن السر في نهاية المطاف (أي: بعد سنتين من رحلة وثائق الترخيص المكوكية بين حلب ودمشق)، وأبلغت المحافظ، بالبريد السري، أن الجهات الأمنية العليا عاتبة على مجلس محافظة حلب.. ألا يخجل من نفسه؟.. أيعقل ألا يتوافر في حلب كلها شخصان بعثيان مناسبان ليكونا بين الأعضاء المؤسسين للجمعية؟

لا أعرف ماذا جرى بعد ذلك بالتفصيل، ولكنني علمتُ أن قرار ترخيص الجمعية، قد صدر، أخيراً، من وزارة الشؤؤن الاجتماعية والعمل..ولكن محافظ

حلب كان قد أقيل من منصبه، واتجه إلى مدينته البعيدة، ليستقر فيها، ويعيش بسلام..

وأما أوراق الجمعية المرخصة.. فقد اتجهت إلى درج ما، في مكتب ما، من مكاتب محافظة حلب.. واستقرت فيه بسلام.. حتى الآن.

* * *

سياسة المعلاق الكبير

كتب خطيب بدلة:

كان صديقي الأديب الراحل تاج الدين الموسى يسمي البلادة الإدارية التي تطبع تصرفات الحكومات السورية المتلاحقة حيال مصالح المواطنين السوريين بـ (سياسة المعلاق الكبير)!

فالمنحوس من أبناء الشعب هو من يكتتب في جمعية، أو يسجل اسمه للحصول على سماد كيماوي، أو بذار بطاطا، أو قرض مصرفي، أو حتى على ربطة خبز.. وكثيراً ما يقف المواطن، ضمن الطابور ساعة، أو أكثر، حتى يصل إلى كوة البيع، فيجد أن نصيبه قد أحيل إلى جنان الخلد، لأن الخبز نفد.

المُحلَّق

في سنة (٢٠٠٠) أو ربما في سنة (٢٠٠١)، فوجئنا، نحن سكان مدينة إدلب، بالجرافات والبلدوزرات والتركسات وهي تقتلع أشجار الزيتون في محيط المدينة، وتفرش مكانها تراباً أبيض، وحجارة صغيرة، ورملاً أبيض ناعماً..

توجهنا بالسؤال إلى أهل العلم عما يجري، فأخبرونا أن مجلس مدينة إدلب قد بدأ بتنفيذ طريق محلق يحيط بمدينة إدلب (كما تحيطُ المبراة بقلم الرصاص.. على حد تعبير محمد الماغوط)..

استمر عمل الورشات في هذا المحلق، بضع سنوات، حتى أنجز أخيراً.. وأصبح أهالي المدينة يتنزهون عليه في العصاري والأماسي والليالي.

أذكر أنني قلت، في أحد المجالس، أن هذا المحلق، برأيي، عبارة عن صرح حضاري ممتاز، وقد أضفى على المدينة جمالاً ورونقاً رائعين.. ولكن.. (قلت للحاضرين:) ألم تلاحظوا أن إنجازه استغرق زمناً طويلاً (حوالي ست سنوات)؟..

أحد الحاضرين، وهو رجل في الستين من عمره، ضحك.. وقال لي:

- ست سنوات؟! فقط؟

ثم أخذ يشرح لنا، والدهشة ترتسم على وجوهنا تدريجياً وتتعاظم، أن إنجاز المحلق قد دُرسَ هندسياً في السبعينيات، ووافقت عليه هيئة تخطيط الدولة، وأدرجته في الخطة الاستثمارية الخمسية (آنذاك).. وأدرج في ميزانية بلدية إدلب (التي أصبح اسمها فيما بعد: مجلس مدينة إدلب) سنة (١٩٨١)..وبدىء بتنفيذه على الفور، فاقتلعت العشرات من أشجار الزيتون وألقيت جثثها على الأرض كالشهداء.

وسرعان ما اعترض المزارعون ملاكو الأراضي المشجرة بالزيتون على مرور مشروع المحلق في أراضيهم، ورفعوا عريضة عاجلة إلى المحافظ.. فأمر سيادتُه بالتريث، فلم يطمئنوا لهذا (التريث) وأرسلوا بلاغاً إلى إحدى الصحف السورية المناضلة، فهبت الصحيفة تمارس عملها، بديماغوجية عالية، معلنة أنها- مثل قيادتها الحكيمة.. فرد شكل- تقف إلى جانب العمال والفلاحين، وصغار الكسبة، وأبناء السبيل، وذوي الاحتياجات الخاص.

رئيس البلدية، بدوره، رد على الصحيفة بأن معظم الفلاحين والمزارعين مؤيدون لإنجاز هذا الطريق المحلق..

وحينما حمي وطيس الأخذ والرد بين الجهتين قررت إدارة الصحيفة المناضلة إرسال وفد صحفي لمقابلة الفلاحين والمزارعين وجهاً لوجه.. ورئيس البلدية ما هو بكسلان، ملأ ثلاث شاحنات بعمال المرآب والصيانة والنظافة والحدائق وأرسلهم إلى البساتين التي يقع مخططُ المحلق في محيطها، متنكرين بالزي الفلاحي الإدلبي..

فلما وصلت البعثة الصحفية إلى أرض الميدان تجمهروا حولها.. وقالوا، بأصوات متداخلة: إن المحلق خير للجميع، فهو يسهل وصول الآليات الزراعية إلى الأراضي، ونقل الأسمدة، والبذار، والمحاصيل، ويرفع أسعار الأراضي الزراعية، فيستفيد الجميع.. يعني، باختصار، إذا لم تنفذوا المحلق نحن سنموت اختناقاً!

المهم يا حبيب العُمر، يا فؤادي لا تسل أين الهوى، يا بهجة الروح.. قررت الجهاتُ المعنية استئناف العمل في شق المحلق.. ولكن.. لا يوجد ابن أنثى وإن طالت سلامتُه، يعرف، أو يُدرك، أو يتكهن، أو يَحزر، لماذا وضعت القصة كلها في أرجوحة (التطنيش)، واللامبالاة، وسياسة المعلاق الكبير..

حزن أصحاب البساتين التي اقتلعت منها أشجار الزيتون على أشجارهم مدة من الزمن.. وحينما مضت سنتان ونيف على بدء (التطنيش).. خطر لهم أن يزرعوا أشجار زيتون جديدة مكانها.. ففعلوا.. وبعد سنوات قليلة أثمرت، وأخذوا يقطفون منها الموسم تلو الموسم، حتى جاءت سنة الـ ٢٠٠٠)).. وقتها لا يوجد ابن أنثى وإن طالت سلامتُه، يعرف، أو يُدرك، أو يتكهن، أو يَحزر، لماذا أعيد الاعتبار لهذا المشروع، ولماذا نفذوه بهذه السرعة (ست سنوات فقط)!!!!!!!!!!!!!!

حقيقة ساطعة

أحب أهل مدينة إدلب المحلق حباً جماً، وبعضهم أصبح يتساءل بينه وبين نفسه: كيف كنا عايشين من دونه؟ ولكن النظام الديكتاتوري الدموي، للأسف، جعله مرتعاً للآليات الثقيلة، ونقاط التفتيش المدججة بالسلاح، وأدار فوهات مدافعه من المحلق باتجاه الأهالي العزل.. فأصبح، على نحو مؤقت بالطبع، مصدراً للموت..

ولكنه سيعود.. عما قريب.. مكاناً للنزهات، والرقص.. والحب.

* * *

حراك سياسي

كتب إياد جميل محفوظ:

استغل أعضاء منتدى "العين" الثقافي مشاركةَ المفكر العربي الكبير الدكتور طيب تيزيني في إحدى فعاليات مؤتمر ثقافي أقيم في "أبو ظبي" عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة العام (٢٠٠٧).. لدعوته إلى مدينة (العين)، وإقامة ندوة خاصة على شرفه، وتكريمه، والاحتفاء به.

بعد الترحيب الحار.. والتقديم اللائق به.. استلم الدكتور طيب تيزيني دفة الحديث، واستهله بالتعبير عن بالغ إعجابه وخالص تقديره بهذا الملتقى.. وقال:

سأنقل، بفرح غامر، إلى المثقفين في سورية ما أشعر به الآن من مشاعر الفخر والاعتزاز وأنا بينكم في رحاب منتداكم الرائع هذا.. وسأخبرهم بأنني التقيت بمجموعة من الأدباء والمثقفين السوريين.. وسأزف إليهم البشرى بأن ثمة حراكاً سياسياً سورياً مهماً يجري ويتنامى في مكان قصي من الربع الخالي في جزيرة العرب.

ما إن أكمل الدكتور تيزيني جملته الأخيرة حتى انتفض أغلبُنا نحن الحاضرين.. هاتفين بحناجر مرتجفة وأصوات مرتبكة لا تخلو من عبارات الاحتجاج والعتاب.. طالبين منه ألا يشطح بخياله!!.. وألا يُحَمِّل الموضوع أكثر مما يحتمل!!.. ثم سعينا جميعاً، بنية صادقة، إلى إظهار الصورة الحقيقية للوضع!!.. فأخذنا نوضح له بأن مجلسنا هذا لا يعدو أن يكون ملتقى أدبياً لقراءة الشعر والقصص والخواطر الأدبية.. و(هيك شي)!!.. ومناقشة مواضيع تتعلق بمتاعب الاغتراب، ومصاعب

الحياة، ومشاغل الأسرة بصفة عامة.. وبأمور الجنس وما شابهها على وجه الخصوص!!.. وأكدنا له أن سهراتنا، في أغلب الأحيان، تقتصر على تناول الوجبات الدسمة وإلقاء النكات البذيئة و.. الساقطة!!!

ورجوناه ألا ترسم ذاكرتُه عن هذا اللقاء سوى صورة صالون أدبي بسيط!!.. أو، إذا رغب، فلا ضير أن يعده مقهى ثقافياً.. ولا مانع لدينا على الإطلاق أن يسبغ على جمعنا هذا صفة (المنتدى الليلي)!!..

وحينما همَّ بالاعتراض على عبارة (المنتدى الليلي) عاجله أحدهم بالقول: يعني.. دكتور.. مو منتدى ليلي بمعنى (كاباريه).. لا لا.. بالعكس.. فنحن نصلي..

ههنا انبرى آخر ليصحح ويوضح.. فقال:

- صحيح أننا نصلي.. ولكن نحن.. لا.. قصدي.. نحن لا علاقة لنا بالإسلام السياسي.. فنحن نؤدي الصلاة باعتبار أنها فرض.. مو أكثر!!

(ملاحظة: كان بيننا واحد "معارض"، لم يعجبه كلامنا من أساسه.. وقد حاول أكثر من مرة أن يدخل على الخط ويقول للدكتور تيزيني إننا جبناء، ولا يليق بنا أن نكون سوريين.. ولكننا استطعنا- والله الحمد- أن نشوش عليه، ونحول بينه وبين إيصال فكرته اللئيمة)!

* * *

جذور الخوف

كتب خطيب بدلة:

عشش الخوف في نفوس السوريين خلال ما يزيد عن أربعين عاماً من حكم العسكر والمخابرات والسجون والأقبية.. حتى إن الدكتور عبد الرزاق عيد أطلق على الجمهورية العربية السورية اسم: جمهورية الخوف!

والإنسان الخائف، على الرغم من أنه يبعث على التعاطف والشفقة، يتحول، في لحظة سيطرة الخوف عليه، إلى شخص مضحك.

في أيام الانتفاضة الشعبية السورية التي بدأت في الخامس عشر من آذار، تخلص قسمٌ كبيرٌ من الناس، وبنسب متفاوتة، من بعض "حمولات" الخوف التي أثقلت كواهلهم عبر السنين، وأما القسم الآخر فقد ارتفعت نسبة الخوف لديهم، وأصبح الواحد منهم ينطبق عليهم القول الشائع: فلان يخاف من خياله (ظله)!

بالمفاتيح

بطلُ هذه القصة شخص يُدعى أبا محمود كان- في قرارة نفسه- معادياً للنظام القائم، متعاطفاً مع الانتفاضة الشعبية، ولكنه، وبسبب (الرهاب) المستحكم بكيانه، كان يموه هذا الشعور.. وحينما تُفتح سيرة الأحداث الدائرة في البلاد أمامه كان يلجأ إلى العبارات التي لا تعني شيئاً محدداً، من قبيل: (الله يختار الخير).. (الله يحمي البلد).. (الله يصلح أحوال الناس).. (الله يهلك الظالم كائناً من كان).. إلخ..

وفي ذات يوم، وبينما كان مستمتعاً بالفرجة على أخبار الانتفاضة عبر قناة (أورينت) المعادية للنظام القائم، إذ قُرع الباب بقوة.. هب أبو محمود واقفاً، وقد ارتبك، وشرع يقول: يللا يللا.. مين؟ وهم بالذهاب إلى الباب، ولكنه تراجع، ففي لاشعوره شيء يجب أن يفعله قبل فتح الباب.. ولكنه نسي هذا الشيء.. والباب استمر يُقرع، فذهب إلى الباب مسرعاً وقبل أن يفتح تذكر قناة (أورينت) التي ما تزال تعرض مظاهرات الاحتجاج.. فما كان منه إلا أن اختطفَ جهاز الرموت كونترول وأخذ يضغط على زر تغيير القناة.. ولسوء حظه كانت بطارية الجهاز منتهية، فلم يستجب التلفزيون لأمر التغيير.. فضرب شاشة التلفاز بمجموعة مفاتيحه، مما أدى إلى كسر الشاشة وتوقف البث.. ووقتها فتح الباب باطمئنان.. فماذا رأى؟

كان ابنه الصغير عائداً من المدرسة وهو في وضعية الزنقة (الاضطرار لدخول الحَمَّام)!

خايفة عليه

وأما هذه القصة فبطلُها رجل من القرية (ع).. كان جالساً مع زوجته في أمان الرحمن، وإذا بالهاتف يرن.. وثمة من أبلغه، باقتضاب، بأن عليه مراجعة فرع الأمن العسكري في مركز المحافظة، صباح اليوم التالي..

إذا قلت لكم إن الرجل أصيب بالإسهال، فإن هذا القول لا يمت إلى عنصر المفاجأة والطرافة بصلة.. فالإصابة بالإسهال هي الوضع الطبيعي (الشائع) في مثل هذه الحالات!!.. ولكن الأمر الطريف أن الرجل، بعد ذلك، كلما ذهب إلى الحمام يجده مشغولاً، لأن زوجته سبقته إليه..

غضب منها غضباً شديداً وقال لها:

- والله عيب عليك.. أنا صار معي هذا العارض لأنني مستدعى إلى فرع

الأمن.. وأما أنت فما هي مشكلتك؟!

قالت المرأة ببرود:

- ببساطة.. أنت خايف من المخابرات.. وأنا خايفة عليك!

أنزلني.. غلطت

وقعت الحادثة التي سأرويها لكم في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين.. وكان حافظ الأسد قد حقق انتصاراً ساحقاً ماحقاً على جماعة الإخوان المسلمين، بعد أن هدم البيوت في مدينة حماه (وغيرها)، فوق رؤوس ساكنيها، وأزال، بالمدافع وراجمات الصواريخ، حارات كاملة من على وجه الأرض.. وفي الوقت ذاته، (وربما كان هذا هدفه الأساسي)، ربى المجتمع السوري كله تربية حسنة، إذ سلط على رقبته قانون الطوارىء والأحكام العرفية ومحاكم أمن الدولة.. وخصى المعارضين والمسيسين، وأزال من الوجود كل من يقول (لا) خارج أوقات الصلاة (حيث يضطر المرء لأن يقول: أشهد أن "لا" إله إلا الله)!

وتحولنا، نحن السوريين، منذ تلك اللحظة، إلى قطيع حزين بائس نُساق إلى الشوارع والساحات العامة الكبرى، لنمشي ونرقص ونغني ونهتف (بالروح بالدم نفديك يا حافظ) ليس في الوقت الذي نختاره نحن، بل في الوقت الذي يقرره أي عنصر، من أية طبقة من الطبقات المحيطة بالمجموعة الحاكمة التي تتمحور حول القائد الأسد.

وفي يوم من الأيام- على حد تعبير المرحوم عبد الحليم حافظ- أخطأ القائد التاريخي الآخر صدام حسين خطيئة لا تُغتفر، بحق قائدنا، وسرعان ما سيقت جموعنا إلى الساحات والشوارع، لنقوم بعمل نضالي مشترك.. وهو تسقيط صدام حسين، عميل أمريكا وأجير عربان النفط، وتعييش بطل الصمود والتصدي، نبراس الأمة العربية حافظ الأسد.

شاب من ديرتنا، من محافظة إدلب.. أخطأ.. سبحان من لا يخطىء.. ويبدو أن وجدانه الداخلي قد تدخل في المسألة، وإذا به، وهو محمول على الأكتاف، يُسَقِّط الأسد ويُعَيِّش صدام حسين.. وحينما أحس بالخطر شرع يرفس الشخص الذي يحمله على كتفيه ويقول له:

- كرمى للملايكة والرسل أنزلني.. غلطت!

* * *

تطاول على الذات الرئاسية

كتب إياد جميل محفوظ:

روى لي هذه القصة صديق قضى الشطر الأكبر من حياته مغترباً في إحدى دول الخليج..

صادفت إحدى زياراته إلى الوطن بعد شهرين أو ثلاثة من بداية الثورة.. بُهت حين أخبره موظف الأمن العام في المطار بأن لديه دعوة لزيارة فرع المخابرات الخارجية في دمشق.. وأنه لن يُسمح له مغادرة سوريا قبل أن يحصل على موافقة خطية من الفرع نفسه.

أقول: بُهِتَ، لأنه، عدا عن كونه محباً لوطنه، مخلصا له.. ليس لديه ميول سياسية، ولا انتماءات حزبية.. ولئن كان، في قرارة نفسه، يؤيد ثورة الحق التي انطلقت للتو في بلده.. فهل الآراء الشفاهية جريمة لا تغتفر؟.. أم أنه فعل شيئاً آخر دون أن يدري خارج سوريا يحاسبه عليه القانون داخل سوريا؟.. ومتى كان هؤلاء يهتمون للقانون؟

تساؤلات وهواجس كثيرة جالت في خاطره قبل أن يستشير الأصدقاء والمعارف الذين أجمعوا على ضرورة أن ينسق مع أحد المسؤولين الأمنيين قبل القيام بتلك الزيارة إلى ذلكم المكان المخيف.

بعد اجتياز البوابات المحصنة، زار الرجلَ المهم الذي كان قد استلم أتعابه مسبقاً عن طريق وسيط.. وكان الوسيطُ قد وعده بأن ترتقي زيارة صديقي إلى مستوى خمس نجوم..

وبعد أن شرب في مكتبه قهوة طازجة أرسله مع أحد معاونيه إلى فرع المخابرات الخارجية، وهنالك استقبله (الشباب) بالحفاوة نفسها.. ومرت الإجراءات في عدة مكاتب، بسرعة، وعلى نحو لطيف.. وودعوه بعتاب بسيط.. فقد كانت تهمته هي أنه، هناك، في المغترب، ذكر اسم السيد الرئيس على نحو غير لائق..

أما كيف تواتر لهم خبرُ ذاك التعدي السافر، من قبله، على (الذات الرئاسية) فهذا بعلم الغيب..(والأرجح ألا تكون هذه التهمة موجودة أصلاً، ولكنها حَققت، لكل واحد من المسؤولين الذين اخترعوها، مبلغاً جيداً من المال، والهدايا، دون أن يقوم بأي جهد، أو عمل، أو حتى تفكير)!

* * *

الوليمة

كتب خطيب بدلة:

دأبنا على أن نسهر، أنا ومجموعة من مثقفي اللاذقية وطرطوس وجبلة، كل خمسة عشر يوماً، في مطعم تنور (أبو أيمن) في منطقة رأس شمرا باللاذقية، نتعشى ونتبادل الأفكار والآراء حول ما يجري في سوريا، وفي العالم، وفي كل مرة يدفع الفاتورة واحد منا.. وكانت تسمى تلك الجلسة الدورية: (الثلاثاء الثقافي).

أحد الأصدقاء، اقترح على الآخرين، أن تكون الجلسة، حينما يحين دوري أنا، في إدلب، فمنها نغير الجو، ومنها نتفرج على آثار محافظة إدلب، ومنها نخفف العبء عن (خطيب) فهو الوحيد الذي يأتي إلى السهرة من مكان بعيد.

واتفقنا أن يكون الموعد في يوم الجمعة بدلاً من الثلاثاء، وأن تبدأ الرحلة منذ الصباح، وتكون الوليمة على الغداء بدل العشاء...

وقبل أن يحين الموعد بيومين، اتصل أحدهم بي وقال لي إن بعض الأصدقاء استجدت لديهم ظروف، ولن نتمكن من الحضور يوم الجمعة، وإن السهرة ستؤجل إلى موعد نتفق عليه لاحقاً.

واحد طبيب فاشل، يعمل بصفة مُخبر، كان قد عَلم، بطريقته الخاصة، بأمر الوليمة، فكتب لفرع أمن الدولة بإدلب، تقريراً ينص على أن الكاتب خطيب بدلة دعا أصدقاءه من اللاذقية، إلى الغداء.. (يا للهول!!)..فكلفوا ضابط صف برتبة مساعد أول تربطني به معرفة قديمة، بـ (التحقيق) في (القضية)..

المساعد أول، إكراماً للمعرفة القديمة، اتصل بي - خلافاً لأصول التحقيق-

S6Bo

وسألني عن موضوع الوليمة.. فقلت له ببراءة: ما هذا الحكي؟ هل صدر قانون، أو أمر عرفي، يمنع إقامة الولائم وأنا ما عندي خبر؟!

لم ينجر إلى دائرة مزاحي.. وقال بجدية:

- لا، ولكن هؤلاء، جماعة الثلاثاء الثقافي، بحسب ما هو وارد في التقرير، محسوبون على المعارضة.. يعني من جماعة (الرأي).

قلت له:

- اسمع هذه الطرفة.. التقى مندوب وكالة أنباء عالمية، برجل من قبيلة تعيش في خيام الصحراء، ورجل فرنسي، ورجل سوري.. وسألهم:

- ما رأيكم بانقطاع الكهرباء؟

فقال الرجل القبائلي:

- ماذا يعني (كهرباء)؟

وقال الرجل الفرنسي:

- ماذا يعني (انقطاع)؟

وقال الرجل السوري:

- ماذا يعني (رأي)؟

قال:

- حلوة.. ولكنها ملغومة.. ماذا بشأن الوليمة؟

قلت:

- تأجلت.. والأرجح أنها ألغيت.

صدق المساعد أول كلامي، ورفع تقريره بهذا الخصوص.. وأنا بدوري اعتقدتُ أن الموضوع انتهى.

في اليوم التالي فوجئتُ بأن فرع الأمن العسكري، وقد تلقى نسخة من تقرير

الطبيب المُخبر، قد سير دورياتٍ كثيرة إلى المطاعم المنتشرة على المحلق، إضافة إلى مطعم الأورينت هاوس، وفندق كارلتون، الهدف منها معرفة المكان الذي ينوي هذا المجرم الحَويط خطيب بدلة إقامة وليمة لأصدقائه فيه.. وانطلقت دورية أخرى، مشتركة بين أمن الدولة والأمن العسكري، إلى مسقط رأسي مدينة معرتمصرين، عسى أن يكون لي فيها وكر خبأت فيه ضيوفي عن أعين القوى الأمنية الساهرة على أمن الوطن وسلامته!

(ملاحظة: أحدهم طلب من شقيقي دريد أن يتقصى عن مكان الوليمة، ويخبره بذلك هاتفياً.. دون أن يعلمني بذلك.. فتجرأ دريد وقال له:

- لم أشتغل عندك مخبراً على أحد من الناس الغرباء حتى أشتغل عندك، الآن، مخبراً على شقيقي)!

الحيادي

كنا نطلق على صديقنا «أبي أسامة» ألقاباً عديدة تتعلق بطبيعته النفسية.. فنسميه «المرعوب» لأنه شديد الخوف والحساسية من السلطة، وبالأخص سلطة المخابرات.. ونسميه «الحيسوب» لأنه كثيراً ما يُربك نفسه بحسابات طويلة وعريضة يعتقد أنها ستؤدي، في مختلف الأحوال والظروف، إلى نجاته من قبضتهم.. ونسميه «الجتا»، لأنه، في الثمانينيات من القرن العشرين، حينما عرف، بالمصادفة، أن أحد المخبرين قدم بشأنه بلاغاً إلى فرع الأمن العسكري يتهمه فيه بأنه متعاطف مع الإخوان المسلمين، هرب من البلدة، واختبأ في الجبال مثل الأشخاص الذين أعلنوا الثورة على المستعمر الفرنسي في عشرينيات القرن الماضي، واختبؤوا في الجبال، وعُرفوا بلقب (الجتا).. الفارق بينه وبينهم أنهم كانوا يقاتلون ويختبئون، وأما هو فكان يختبىء فقط!

ومع مرور الأيام وكر السنين، هدأت أحوال البلاد السورية.. وتراجع الخوف قليلاً، وأصبح الناس يعيشون في أمان نسبي، وأصبح عمل المخابرات مقتصراً

على قمع السياسيين الكبار، وبالأخص الديمقراطيين منهم، ورعاية المجموعات المسلحة الموالية للسلطة، ممن عرفوا، فيما بعد، باسم (الشبيحة).

في يوم من الأيام، من سنة (٢٠٠٩)، جاء «أبو أسامة» لزيارتي في البيت. كان مزهواً، فرحاً، وكأنه قد نجا، لتوه، من محنة عصيبة. قال لي، بثقة متناهية:

- أخي، باختصار: أنا إنسان عبقري!

أطلقتُ بفمي صفرة تعجب طويلة، وقلت له: عبقري؟ دفعة واحدة؟!

قال بثقة:

- أي نعم.

قلت:

- فما رأيك، إذن، أن نضيف «العبقري» إلى ألقابك؟

قال:

- لا مانع. المهم أن تعرف لماذا أنا عبقري.

وجدتُ أن الجِدَّ هو العنوان الرئيسي لحديثه، فتحولتُ معه إلى الجد..

قلت له:

- لماذا؟

قال:

- لأنني استطعتُ أن أتخلص من ذلك العنصر المخابراتي اللعين بذكاء منقطع النظير، وأحبطتُ المحاولات التي بذلها للإيقاع بي كلّها.. أأنت لا تعرف أساليب المخابرات في اللف والدوران والمراوغة؟

قلت:

- بلى أعرفها.. ولكن.. قل لي.. ما الذي جرى بالضبط؟

قال:

- لقد جاءني ذلك العنصر متأبطاً دفتر مذكراته وكأنه محام متدرب.. ولكي يأكل من عقلي الحلاوة، ويجعلني أعطيه من الأسرار ما يُرضي جشعه، سارع إلى طمأنتي بأن المعلومات التي يريد جمعها عني تدخلُ في باب التقييم الدوري، وأنه لا يوجد أي شيء مخيف بالنسبة إليَّ في الوقت الحاضر. وأنا بدوري ابتسمتُ في وجهه لكي أُفْهِمَهُ أنني لست بخائف ولا وجل،.. ولماذا أخاف طالما أنني بريء والأرض تحتي نظيفة؟ سألني في البداية: أنت رفيق بعثي؟ فقلت له: الصراحة؟ لا والله.. (واستدركتُ) كُن على ثقة أن لديَّ رغبة عارمة بأن أكون رفيقاً بعثياً، ولكنني، قسماً بالله نسيت.. قصدي.. حينما كنت في مطلع شبابي نسيتُ أن أقيِّد نفسي في سجلات الحزب. سبحان الذي لا يسهو ولا ينسى،.. ولما كبرتُ، وصرت في هذا العمر المتقدم، فكرتُ بهذا، ولكنني رأيت أن الوقت قد فات.. فإذا انتسبت إلى حزب البعث الآن ماذا سيقول عني الناس؟ ألن يقولوا لي: (أنتَ هازي) يا «أبو أسامة»؟

ضحكتُ رغماً عني وقلت لأبي أسامة مصححاً: يقولون (انتهازي)، وليس (أنتَ هازي)!

قال:

- يا سيدي كله يحصل بعضه.. المهم أن ذلك العنصر المتذاكي ألحقني بسؤال آخر، إذ قال لي: أنت شيوعي يا «أبو أسامة»؟ فقلت له: أنا؟ لا علي الطلاق بالثلاثة ماني (شوعي)، ولا بحياتي مشيت مع شوعي، أو فكرت أن أكون مع الشوعية. قال: أنت ناصري إذن؟ قلتُ: لا بشرفي، مع أني رأيتُ عبد الناصر عندما مر من هنا، قبل خمسين سنة مثلما أراك الآن. الناس يومها كادوا أن يعجقوا على بعضهم البعض مثل النفرة أيام الحج، لكي يصلوا إليه ويصافحوه.. مجانين بعيد من قبالي.. لأن عبد الناصر، وأنا شفته بعيني، رجل مثلي مثلك.. فلماذا التدفيش والتعجيق؟ ووقتها وجد الفرصة مناسبة للإيقاع بي، فقال: على ذكر النفرة والحج، أنت إخوانجي؟ نططت حينئذ وما حططت، وقلت له: أنا؟ لا بأولادي التسعة، ماني إخوانجي، ولا أعرف كيف يكون الواحد إخوانجي.. صحيح

أنا أصوم وأصلي، ولكنني في بعض الأحيان أفطر في رمضان، وكثير من أوقات الصلاة أنساها.. المشكلة بذاكرتي يا أستاذ.. تصدق؟ أنا في أكثر الأحيان أنسى أن أتشاهد..

هل تعرف ماذا فعل ذلك العنصر اللعين بعدما أغلقتُ عليه كافة المنافذ؟

قلت:

- ماذا فعل؟

قال:

- ههنا أراد أن يوقعني بالضربة القاضية، فقال لي.. ما دام الأمرُ على هذه الصورة فأنا سأسجلك (حيادي)..

قلت:

- هذا حل معقول.

رمقني أبو أسامة بنظرة عتاب لاذعة وقال لي: لا يا أستاذ.. والله أزعل منك.. هل يعقل أن أتركه يسجلني عند المخابرات (حيادي)؟..

قلت:

- لم لا؟

قال:

- لأن الحيادي، بسلامة عقلك، هو مَن (يحيد) عن درب الحزب والقائد. أليس كذلك؟

ضحكتُ حتى انقلبت على ظهري وقلت له.. معك حق..

ومن يومها نسيت ألقاب أبي أسامة السابقة.. وأصبح يعرف بيننا بلقب (الحيادي)!

* * *

دولار

كتب إياد جميل محفوظ:

قبل عدة سنوات.. توجه صديقي "يوسف برو" إلى بلدة "حارم"، في ريف محافظة إدلب، لإنجاز بعض الأمور الرسمية الخاصة بأسرته..

حينما عرف الموظف الحكومي الذي راجعه أنه مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة أبدى اهتماماً خاصاً به..

وكان ثمة فتى صغير قدم ليوسف بعض الخدمات، كشراء طوابع من "الكولبة" المجاورة، وتصوير إحدى الأوراق الثبوتية.. ويوسف، بدوره، أحب أن يقدم له تحية بسيطة.. فمنحه (دولاراً) وجده في محفظته.

الموظف الحكومي جحظت عيناه باتجاه الدولار.. ثم أنشب ذراعه الغليظة نحو يد الفتى الرقيقة، واقتلع منها الدولار.. وحشره داخل أحد جيوبه المنتفخة.. ونقده بدلاً منه قطعة معدنية من فئة الـ عشر ليرات.

استهجن يوسف هذا التصرف الغريب.. فهو، بطبيعة الحال، كان ينوي أن يدفع للموظف الحكومي إكرامية محرزة بعد إنهاء معاملته.. ولكن، وقبل أن يتمكن من قول أية عبارة، بادره الموظف النبيه بلهجة رائقة، وواثقة، قائلاً:

- "حرام.. هذا الفتى لا يفهم بالدولار وما دولار.. ماذا سيفعل به؟.. السوري أحسن له.. ألم تر يا أستاذ.. كيف امتلأ وجهه بالفرح والسرور عندما أخذ العشر ليرات"؟!!!

* * *

بالروبل

كتب خطيب بدلة:

ثمة كاتب روسي ساخر مشهور اسمه ميخائيل بولغاكوف.. قرأنا له رواية جميلة جداً عنوانها (المعلم ومرغريتا).. الرواية كُتبت أيام الديكتاتورية الستالينية، ولكن الرقابة السوفييتية لم تسمح له بنشرها حتى الستينيات من القرن العشرين، لأن فيها إدانة لتلك المرحلة الاستبدادية.

أحد أبطال الرواية هو واحدٌ من الذين كانوا يعيشون عيشة السلاطين في ظل الفساد والرشاوى، ولكن، ذات يوم وقع خلاف بينه وبين فاسدين آخرين أقوى منه.. فحفروا له حفرة وأوقعوه فيها..ففجأة، وبينما هو قائم على رأس عمله، إذ دخلت عليه دورية من البوليس، وفتشته، وعثرت على كمية من الدولارات في درج طاولته.

في معرض دفاعه عن نفسه أمام القاضي قال:

- يا سيادة القاضي أنا بالفعل أرتشي، هأنذا أعترف أمامك بكل وضوح، كنت، وما أزال أرتشي.. ولكن بالروبل وليس بالدولارا!..

(واضح أن الذين فتشوه وضعوا الدولارات في درجه، لأن عقوبة الرشوة بالعملة الأميركية - العدوة- مضاعفة)!

على ظهره

كان الصديق الأديب الراحل ممدوح عدوان يتحدث عن اعتقاد شعبي ترويه

الجدات لأحفادهن لكي يبعدنهم عن المال الحرام، فتقول الجدة لحفيدها:

- يا ابني إياك والسرقة، فالسارق يأتي يوم القيامة حاملاً على ظهره كل الأشياء التي سرقها في حياته.

ويتخيل أبو زياد (ممدوح عدوان) حرامية الزمن القديم في يوم المحشر وهذا يحمل على ظهره عنزة، وذاك يحمل رطلين من التمر، وثالثاً يحمل سجادة صغيرة لا يزيد وزنها عن رطلين أو ثلاثة.. وأما الحرامية المعاصرون فيأتي الواحد منهم حاملاً على ظهره بنايتين وخمس باصات تعمل على خط حلب دمشق وخزانة حديدية ملأى بالدولارات واليوروهات.. باختصار أنت تستطيع أن ترى المسروقات، ولا يمكنك أن ترى الحرامي الجاثم تحتها مثل الحمار الهزيل التعبان!

من أين لك هذا؟

مع أن الجنرال حافظ الأسد يُعتبر من دهاة العرب في القرن العشرين، ويعرف كيف، ومن أين، ولماذا، ومتى يجب أن تؤكل الكتف.. إلا أنه، في إحدى مراحل حكمه، خطرت له فكرة لا تشوبها أي شائبة من ذكاء، أو فطنة، أو دهاء.. حينما أمر بتشكيل لجنة رفيعة المستوى، مهمتُها محاسبة المسؤولين الكبار الذين كانوا (أفقر من الطنبورة) قبل توليهم مناصبهم، والآن ثرواتهم لا يمكن إحصاؤها، لأنها، خلال المدة القصيرة التي سيشتغل خلال الخبراء في إحصائها تكون قد زادت كثيراً، إن لم نقل تضاعفت.

فبعد أن بدأت اللجنة بعملها، بأيام قليلة، بدأت التقاريرُ المرعبة تأتي إلى القصر، عن ثروات خيالية شكلها أعضاء فريق السلطة خلال مدد قصيرة.. وحالما توجه بالسؤال إلى مستشاريه: ما العمل؟ انهمروا عليه باقتراحات يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

الأول- صحتين على قلوبهم يا سيادة الرئيس.. إنهم يتعبون ويشقون ويستحقون المكافأة..

الثاني (همساً)- حينما تشبع الحاشية، يا سيدي، يستحيل أن تنبح على الراعي.. أو- لا سمح الله- تعضه.

الثالث- إذا كنا سنحاسب رفاقنا.. ماذا نقول للغريب؟..

وسرعان ما طوي القرار.. وتوقف عمل اللجنة المشؤومة.. وبالطبع رفع لصوص السلطة من وتائر نهبهم للبلاد.

الإضبارة

الطرفة التالية لا يمكن أن تحدث إلا في نظام شمولي، ديكتاتوري، يقوم على اغتصاب السلطات، وعبادة الفرد، وقهر الشعب..

يحكى أن.. الجنرال حافظ الأسد، في إحدى السنوات الأخيرة قبل وفاته، كان قد أقال الوزارة، وجلس يُجري مشاوراته لتسمية رئيس للوزارة الجديدة.. وكان أفراد الحاشية قد حصروا الاحتمالات بإثنين أو ثلاثة من الأسماء المتداولة في أروقة القصر.

وفي ليلة ما فيها ضوء قمر..فوجىء الجميع باستدعاء الجنرال لشخص آخر.. لم يكن اسمه مطروحاً البتة بين الاحتمالات.. إنه الأستاذ (سين) محافظ إحدى المحافظات البعيدة.

حينما حضر (سين) أمام الجنرال الأسد أصيب بالهلع، إذ وقع بصره، على المنضدة أمام الجنرال، على إضبارة سميكة جداً مكتوب عليها اسمه، فخاف أن يُضحي به الجنرال، كما سبق له أن ضحى ببعض أركان حكمه.. محمود الزعبي مثلاً.

أسند الجنرال يده على الإضبارة، وقال للمحافظ (سين) إن أغرب ما قرأ في سيرته، أنه، أي المحافظ (سين)، إذا احتدمت مشاجرة، في المحافظة التي يديرها، بين عائلتين، بسبب ثلاث عنزات، فإنه لا يسمح بفض المشكلة بين العائلتين، إذا لم يتنازل له أحد الطرفين أو كلاهما عن عنزة، وفي بعض الأحيان

عن عنزة ونصف!

وقال:

- لم أسمع، طيلة حياتي، عن رجل مولع بالسرقة وتقبل الرشاوى مثلك!

بلع المحافظ ريقه، بصعوبة، من شدة الهلع، وهَمَّ بقول شيء ما.. ولكن الجنرال فاجأه بعبارة:

- على كل حال.. ولا يهمك.. قررنا تكليفك بتشكيل الوزارة!.. مبروك!

* * *

لهجات عربية

كتب إياد جميل محفوظ:

بعد رحلة ممتعة إلى "شرم الشيخ" كان لا بد من أن نمضي أنا وزوجتي يوماً كاملاً في القاهرة قبل العودة إلى الإمارات.. ولما كانت هذه الفترة قصيرة جداً.. ولا تتيح للزائر أن يتعرف على معالم القاهرة السياحية كلها. وما أكثرها- استقر بنا الرأي على أن نستأجر سيارة مع سائقها.

بدا قائد الرحلة الشاب (الذي يحمل شهادة جامعية) ظريفاً، لطيفاً، ويتحلى بروح الدعابة كأغلب الأخوة المصريين.

ولما كنت أمضيت مدة طويلة في دولة الإمارات العربية المتحدة.. واختلطت بالجنسيات العربية المختلفة.. فقد أصبحت خبيراً بلهجاتها.. وغدوت قادراً على التعامل بطريقة سلسة مع دليلنا المصري الذي بدا لا يتقن سوى لهجته المحلية.. في حين كانت زوجتي تخاطبه بصورة عفوية بلكنتنا الحلبية الخالصة.. فكان يفزعُ إليَّ مستجيراً بعبارات مثل: (هي الهانم بتقول إيه يا افندم؟).. (قالت إيه ست الكل؟) .. (المدام عايزة إيه؟).. إلخ

فأسارع، عندئذ، إلى الترجمة الفورية.. وتعود علائم الارتياح إلى الظهور على قسماته وهو يجيب عن استفساراتها.. إلى أن ضاق ذرعاً، في وقت متأخر من النهار، بعد حوار مقتضب معها لم يفهم منه شيئاً، فهتف قائلا بنبرة معاتبة:

- هي المدام ما بتتكلمش عربي زينا ليه؟!

***

ترجمة فورية

كتب خطيب بدلة:

تعرضتُ، فعلياً، لمسألة الترجمة الفورية، في الثمانينيات من القرن الفائت.. فقد كنتُ أذهب إلى مدينة حلب، وهناك نلتقي، أنا ومجموعةٌ من أصدقائي الحلبيين، مع الراوئي الجزائري "واسيني الأعرج" الذي كان يحل ضيفاً على مجموعة من الطلاب الجزائريين الذين يدرسون في جامعة حلب.

"واسيني"، بسبب أسفاره، ومعاشرته للعديد من الأقوام العربية، كان يتحدث بلهجة وسط مفهومة من قبل الجميع.. وأما الطلاب الجزائريين، فكانوا، إذا أرادوا أن يقولوا لنا شيئاً، يقولونه لـ "واسيني" وهو يترجمه لنا!

وكان بينهم فتى يتحدث بسرعة وعصبية، وأذكر أنني كنت أضحك- مرغماً- كلما تحدث.

الشيخ لا يهدر بالعربية

وذكر لي الصديق الروائي عبد العزيز الموسى أن أهل الجزائر الطيبين يطلقون على معلم المدرسة لقب (الشيخ)..

وفي مرة من المرات كان أحد المعلمين السوريين الذين يعملون في الجزائر مضطراً للسفر من مدينة إلى مدينة، فجاء إلى محطة السفريات، والازدحام فيها على أشده، فتقدم من سيارة أجرة فيها خمس ركاب، وأراد أن يكون هو الراكب السادس، فقال له السائق:

- ما كانشي بلاصا يا شيخ.. البرونسيبيليتي دي يَالَكْ..

لم يفهم المعلم السوري العبارة وهي تعني (لا يوجد مكان يا أستاذ ومسؤولية المخالفة في ذلك عليك).. وقال للسائق باستغراب:

- شو؟

فأعاد عليه الجملة، وكرر المعلم استغرابه، فقال السائق:

- الظاهر إنو الشيخ ما يهدرش عربي!!

ملوخية

حدثني صديقي الراحل محمد نور قطيع أنه كان يصغي- كعادته قبل أن ينام- إلى الراديو، ويقلب المحطات العربية المختلفة، وإذا به يستقر على حوار تجريه مذيعة مصرية خفيفة الظل مع مذيع مصري متقدم في السن، وكان المذيع يتحدث عن ذكرياته البعيدة، فقال:

- في أواخر الستينيات أوفدتني إذاعة القاهرة إلى الجزائر الشقيقة، مع مجموعة من الإعلاميين المصريين المخضرمين، للمساهمة في تدريب شبان جزائريين كانوا متقدمين لـ (مسابقة اختيار مذيعين)..

وذات مرة، وبينما أنا خارج من مبنى الإذاعة الجزائرية، في آخر الدوام، إذ تقدم مني رجل، وقال لي ما معناه إنه يحب أهل مصر حباً جماً، ولهذا فهو يدعوني إلى الغداء في بيته حالاً، وإذا لم ألبِّ الدعوة فهذا يعني أنني لا أبادله المشاعر نفسها.

كنتُ، في تلك اللحظة، أشعر بالجوع، فقبلتُ الدعوة دون تردد، واصطحبني الرجل في سيارته إلى بيته، وبمجرد ما دخلنا استقبلتنا زوجته وأولاده، وقبل أن يتلفظوا بأية كلمة قال لهم، باللهجة الجزائرية، بحسب ما فهمتُ من كلامه: إذا أردتم أن توجهوا أي كلام لضيفنا المصري وجهوه إلي، وأنا أنقله إليه، فأنا ضليع باللهجة المصرية، من كثرة ما حضرتُ من أفلام سينمائية مصرية ومسلسلات

تلفزيونية..

استغربتُ منه هذا الادعاء، فحينما حدثني، عند باب الإذاعة، كان يتحدث بلهجة مصرية مكسرة، وبالغة العسر..

وزاد الطين بلة أنه، حينما أصبحنا في غرفة الطعام، قال لي بلهجة استعراضية وهو يشير إلى كرسي شاغر:

- أهلاً أهلاً يا أُستاذ.. تفضل.. تْنَيِّلْ!

ضحكت المذيعة وقالت:

- وتْنَيِّلْت حضرتك؟

فقال:

- أُمَّال أعمل إيه؟ أبقى واقف؟!

وبعد قليل رأى الرجل زوجته تعبر أمام الباب، فقال لها باللهجة الاستعراضية ذاتها:

- هاتي الملوخية يا راجل!!

ضحكت المذيعة.. وقال المذيع:

- أنا بقى، تفاءلت بيني وبين نفسي، وسامحت الراجل عالليبيقولو.. علشان إيه؟ علشان أنا بحب الملوخية أوي أوي.. لاكن خيبة أملي كانت كبيرة جداً لما ست البيت جابت الطعام وإذا هو بامية.. مش ملوخية!

* * *

منظمة الطلائع

كتب إياد جميل محفوظ:

جرت هذه الحادثة في أثناء إجازتي في حلب صيف (٢٠٠٨).

غمرني الاستغراب حينما شاهدتُ الصديق العزيز أبا فؤاد خارجاً من أحد مساجد حلب بعد صلاة الجمعة.. فأنا لم ألتق به منذ سنوات طويلة.. كما أنني لم أتوقع أن أصادفه في مثل هذا المكان.

بعد الترحيب الحار، والقبلات المتبادلة، سألني:

- أمازلت مقيما في الإمارات؟

قلت:

- نعم.. وأنت يا عزيزي؟

قال:

- في المكان نفسه.. ما زلتُ أميناً لفرع طلائع البعث بحلب.

قلت:

- ما شاء الله وكان.. ولكن.. لقد تناهى إلى سمعي أن منظمة الطلائع حُلَّتْ لانتهاء صلاحيتها.. وأنه سيُعاد الاعتبار إلى الأنشطة التربوية والرياضية والكشفية على نحو حقيقي وسليم.

قال:

- لا لا أبداً.. لا يوجد شيء من هذا.. إن منظمة الطلائع- في الحقيقة- مؤسسة

رائدة.. لها أهدافها التربوية وخططها المستقبلية.. لا يمكن الاستغناء عنها إطلاقاً.

قلت:

- غريب هذا الكلام.. أمازلتَ تؤمنُ (حقاً)، بعد عشرين سنة من قيادتك لفرع طلائع البعث بحلب، أن مثل هذه المنظمات الزائفة، والشعارات الكاذبة والمضللة، يمكن أن تبقى رائجة ومقبولة؟.. لقد سئمتْ نفوسُنا- يا صديقي أبو فؤاد- من هذه العبارات الطنانة والرنانة.. يا أخي كفاكم استخفافاً بعقول الناس.

امتقع وجه أبي فؤاد، وقال لي بلهجة من يريد أن يُنْهي اللقاء (والصداقة أيضاً):

- انظر إلي جيداً.. أبو فارس.. إذا كنت تحبني.. لا تكرر قول هذه الآراء أمام الآخرين.. دعنا نعمل بسلام.. وعُدْ أنت إلى عملك في الإمارات.. وادفن هذه الأفكار الهدامة تحت رمال أقصى صحراء.

* * *

شجون حكومية

كتب خطيب بدلة:

تأسست منظمةُ طلائع البعث في سوريا سنة (١٩٧٤)، وهي منظمة تربوية تهدف إلى تعليم الجيل الصاعد (في المرحلة الابتدائية) حُبَّ الأب القائد، والإخلاص لحزب البعث، والولاء للقيادات التاريخية التي جاد بها الزمان مرة، ولا يمكن له أن يجود بمثلها مرة أخرى!..

عُين الرفيق أحمد أبو موسى، منذ لحظة تأسيس المنظمة، قائداً أبدياً لها، وقد استمر في قيادتها حتى يوم وفاته (٢٤ شباط / فبراير - ٢٠٠٩)..

إن السبب الرئيسي لبقاء الرفيق (أبو موسى) على رأس عمله لمدة (٣٥) سنة متواصلة، في رأينا المتواضع، هو أنه كان على علم بالإكسير، أو بالسر الخطير الذي يقوم عليه مبدأ تعيين أهل المناصب في سورية الحبيبة.. وهو التالي: إذا كنتَ تعرف، حَقَّ المعرفة، أن الجهة التي عينتك في هذا المنصب، لَقادرةٌ، متى شاءت، أن تُزيحك عنه، وتُعَيِّنَ الآذنَ (الفراش.. المسؤول عن تنظيف مكتبك وتقديم المشروبات الساخنة لضيوفك) مكانك، فأنت ستبقى في هذا المكان حتى تموت فيه، ولا من أحس ولا من دري!

(ملاحظة: إنني لم أعرف الرفيق أحمد أبو موسى عن قرب، ومن ثم لا أستطيع الحكم على شخصيته بدقة.. والهدف من هذه الكتابة ليس الطعن بشخصيته، ولا الإشادة بها، وإنما البحث في الظواهر الطريفة التي تنبع، أو تتفرع عنها).

أين الشعب؟

ولعل من أطرف ما قرأت في سيرته هو أنه، بالإضافة إلى عمله في منظمة الطلائع، بقي عضواً في مجلس الشعب (الذي عُرف بين الناس باسم غريب هو: مجلس التصفيق) لست دورات متتالية، أي: لمدة ربع قرن!!.. وهذا يعطيك فكرة عن تركيبة مجلس الشعب الذي كان يضم (بالإضافة إلى كتيبة حزب البعث وأحزاب الجبهة الوطنية التقدمية) وزراءَ في الحكومة، ورؤساءَ المنظمات الشعبية (الطلبة والفلاحين والشبيبة والطلائع والعمال واتحاد الكتاب العرب والاتحاد النسائي)، وضباطاً في الأمن والشرطة وما شابه ذلك..

وهذا يعني، بالضبط، أن مجلس الشعب، الذي يُفترض به أن يكون (السلطةَ التشريعية) التي تراقبُ عمل الحكومة والسلطة الحاكمة، محشو برموز الحكومة والسلطة الحاكمة، وأما الشعب فحسبه الله ونعم الوكيل.

دال نقطة

استدراك أول:

كان الأديب الكبير الراحل حسيب كيالي (١٩٢١- ١٩٩٣) يسمي حاملَ شهادة الدكتوراه إذا كان من ذوي الثقافة الضحلة، محباً للتباهي و"البروظة": (د.) دال نقطة. وأصل التسمية أن كلمة (نقطة).. تستخدمها السيدات في مدينة إدلب للهجوم على شخص ما فيقلن: نقطة ترشُّه. وهي تعادل المصطلح النسواني الحلبي القائل: وبا يقشُّه!)

استئناف أول:

وكان الرفيق أحمد أبو موسى قد حصل، أثناء بقائه السرمدي رئيساً لمنظمة طلائع البعث، على شهادة (دكتوراه) لا يعرف أحدٌ، على وجه التحديد، مصدرَها، وأغلب الظن أنها من (فراطة) دول المرحوم الاتحاد السوفييتي، ففي سني التسعينيات من القرن العشرين، لم يبق أحد من متسنمي مناصب الدولة إلا وحصل على شهادة (دكتوراه)، وبضمنهم بعض رؤساء الشعب الأمنية (مع أن

معظم هؤلاء أتوا من الجيش إلى الأمن، أي أنهم غير حاصلين على شهادات جامعية أصلاً، ولا يحق لهم الانتساب، مجرد الانتساب إلى صفوف الدراسات العليا)!

وكان (الدكتور) الآخر علي عقلة عرسان، الرئيس السرمدي لاتحاد الكتاب العرب الذي لا يعرف السوريون اسم الشخص الذي سبقه إلى هذا المنصب.. كريماً مع (الدكاترة) رؤساء المنظمات الشعبية، فجعلهم أعضاء في اتحاد الكتاب العرب، ومنهم المرحوم الدكتور أبو موسى.. وللعلم أن اتحاد الكتاب العرب قد ضم في عضويته عدداً كبيراً من ضباط الجيش والشرطة والأمن، سواء أكانوا قائمين على رأس عملهم، أو متقاعدين!

استدراك ثان:

اكتشفنا نحن السوريين، في وقت متأخر، أن عظام رقبة النظام الأمني السوري كانت لهم صفات أخرى غير معلنة، ومما وقف له شعرُنا عمودياً، مثل ريش القنفذ، أن المدعو عبد الحليم خدام بقي عضواً في نقابة المحامين، إلى جانب عمله الأساسي في المشاركة الفعالة في قمع الشعب السوري.. ولولا انشقاقُه على النظام لكان استفاد من كافة المزايا الاجتماعية لنقابة المحامين، كالتقاعدية والطبابة وتعويض الوفاة.. إلخ.. أصلاً المدعو ع ع (عرسان) كان يحشو اتحاد الكتاب بهذه الكائنات العجيبة لأجل أن يفيدهم من المزايا المخصصة- نظرياً- لنا نحن الكتاب.

اتحاد للكتاب؟

حينما أمر المدعو علي عقلة عرسان بفصل الأديب الكبير حسيب كيالي من عضوية الاتحاد، بسبب انتقاد حسيب لتصرفاته، ذكر حسيب شيئاً عن عملية الفصل هذه أمام كاتب فرنسي صديق له، فاستغرب الكاتب الفرنسي ذلك، وقال لحسيب:

- عندكم في سورية اتحادٌ للكتاب؟!! إن الكتاب وجدوا ليختلفوا ويتباينوا ويتفارقوا.. لا ليتحدوا!!

تضخم نقدي

ابتلي أحدُ القراء الناشطين على الفيسبوك بحب التعليقات التي أكتبُها، أنا أخاكم الأقل شأناً بينكم، وشرع يتابعني باهتمام، ولا يترك (Post) من بوستاتي إلا ويضع عليه (Like) و(Share) و(Comment).. ثم قاده هذا الاهتمام إلى البحث عن اسمي في (Google)، من أجل أن يعرفني أكثر.. وعلى إثر ذلك فتح نافذة للدردشة معي على الخاص.. فدار بيننا الحديث التالي..

هو: أستاذ خطيب أنت كاتب وأديب معروف.. ولكنني فوجئت أثناء قراءتي لسيرتك الذاتية بأنك تحمل إجازة في العلوم الاقتصادية..

أنا: هذا صحيح.. فأنا متخرج في كلية العلوم الاقتصادية بحلب سنة (١٩٧٦).

هو: يعني.. أستاذ.. لا تؤاخذني.. أنت تفهم في الاقتصاد؟

أنا: طبعاً.. ولو.

هو: طيب.. ماذا تعرف عن.. مثلاً.. عن.. التضخم النقدي؟

أنا: التضخم النقدي يكون بطرح كميات من العملة الورقية في السوق، دون أن يقابل ذلك زيادةٌ في إنتاج السلع والخدمات.. أو أن تُطرح العملةُ الورقية بلا رصيد من المعادن الثمينة كالذهب والفضة والماس.. سأوضح لك الأمر أكثر.. إن قيمة السلعة، في حالة التضخم، تبقى كما هي.. ولكن سعرها يرتفع على نحو وهمي، خلبي.

هو: أستاذ.. ممكن مثال؟

أنا: طبعاً. يا عزيزي، في يوم من الأيام، قبل حوالي (١٥) سنة، كنت في زيارة للقسم الثقافي بجريدة تشرين.. دخل مراسل البريد ووضع بعض الصحف على الطاولة، ومنها صحيفة "الأسبوع الأدبي" التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب.. أحد الأصدقاء، من محرري الصفحة الثقافية سألني: هل تقرأ افتتاحية علي عقلة عرسان في الأسبوع الأدبي وتأخذ مني (٢٥) ليرة حلالاً زلالاً؟ قلت له: اقرأها أنت وخذ مني (٥٠) ليرة حلالاً زلالاً!.. وفي سنة ٢٠١٠))، التقيت بالصديق نفسه في

مقهى الهافانا.. وكانت معه صحيفة الأسبوع الأدبي. قال لي: هل تقرأ افتتاحية حسين جمعة (رئيس الاتحاد الجديد) وتأخذ مني خمسمئة ليرة حلالاً زلالاً؟ فقلت له: اقرأها أنت وخذ مني ألف ليرة حلالاً زلالاً!

(هذا هو، أيها الصديق، على وجه الدقة، مفهوم التضخم النقدي).

الذكر والأنثى

وبالعودة إلى الحديث عن منظمة الطلائع..

رويت طرفة عن حشاش شهير جاءه أحد أصدقائه ومعه قفص فيه ببغاوان ظريفان.. بعد السلام والتحية عرض عليه معضلة تمر به، وهي أنه اشترى هذين الببغاوين وهو لا يعرف أيهما الذكر وأيهما الأنثى..

قال الحشاش:

- ائتني بكمية مبحبحة من الحشيش.

نفذ صديقُه الطلب.

جلس الحشاش مع صديقه والببغاوين في غرفة صغيرة، وأحكم إغلاق الأبواب والنوافذ.. وشرع يحشش، وينفث الدخان في المكان.. وشرع صديقه والببغاوان يتنفسون دخان الحشيش المعشش في الحيز الضيق.. حتى انسطلوا جميعاً.. ووقتها قال الحشاش:

- يا إخوتي الأعزاء.. الآن سمعت خبراً طازجاً.. لقد حُلَّتْ منظمة الطلائع.

فأشار أحد الببغاوين إلى وسطه وقال:

- هذا الخبر على رأس هذا!!..

قال الحشاش لصديقه:

- هذا هو الذكر!!!!

* * *

هدية متواضعة

كتب إياد جميل محفوظ:

حدثنا الصديق مصطفى خُزّيني، وهو واحد من أهم لاعبي نادي حلب الأهلي، ومن أبرز نجوم منتخب سورية بكرة القدم في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عن إحدى ذكرياته.. فقال:

- بعد زيارة منتخب سورية لكرة القدم إلى الاتحاد السوفييتي في العام (١٩٧٢).. الذي كان يمثله في تلك الفترة نادي الجيش.. توقع اللاعبون بأن ثمة مكافأة مادية بانتظارهم، إثر المستوى الرائع الذي قدموه أمام فريق الجيش الروسي.. حيث انتهى اللقاء بنتيجة (واحد - صفر) فقط لمصلحة الفريق السوفييتي.. ناهيك عن العروض الطيبة والنتائج الإيجابية التي حققها المنتخب أثناء تلك الزيارة.. والتي تناغمت مع سمعته الكروية المتميزة آنذاك.

غير أن الدهشة الواسعة أصابتهم عندما أخبرهم رئيس البعثة بأنه سيبادر إلى شراء هدية متواضعة.. ليقدمها لمعالي وزير الدفاع حين عودتهم إلى أرض الوطن!!.. تعبيراً منهم عن عميق امتنانهم، وخالص تقديرهم، لرعايته الكريمة، ودعمه المطلق! لفريق الجيش السوري.

المفاجأة، بل الصفعة الأكبر، كانت حين تم اقتطاع نصف تعويض مهمة سفرهم البسيطة لتغطية ثمن تلك الهدية المتواضعة.. دون المساس- طبعاً- أو الاقتراب من تعويضات الإداريين المهولة (الذين كانوا من رتب عسكرية متنوعة).

في اليوم الأول بعد الرجوع إلى الوطن لم يستطع أفراد المنتخب السوري مقابلة السيد وزير الدفاع.. فقد كان منشغلاً.. (كما قالوا) بعد الظهر، بممارسة رياضته المفضلة ألا وهي لعبة التنس.. وفي المساء بالتسكع في حي أبو رمانة الراقي وشوارعه الخلفية.. وفي الليل بمواعيده مع الألحان والنغمات.. والمذاقات العذبة للكؤوس المترعة.

انتظر نجوم منتخب سورية لكرة القدم لمدة يومين آخرين، في فنادق دمشق الرخيصة، دونما جدوى.. فانقلبوا إلى ديارهم، في المدن السورية المختلفة، عائدين بخفي حنين.. دون أن يتاح لهم رؤية الوجه البشوش لمعالي وزير الدفاع في اللحظة التي سيتكرم ويتفضل فيها باستلام هديتهم المتواضعة وقبولها.

حين انتهى الصديق مصطفى حزيني من سرد حكايته سألته:

- هل تبينتم، لاحقاً، ما إذا كانت الهدية قد أعجبت سيادته أم لا؟!

تزاحمت علامات الغيظ والسخط والاستهزاء في عينيه، وبعد تردد قال:

-أسفي عليك يا إياد.. كان جديراً بك أن تسأل: هل الهدية قد تم شراؤها أصلاً؟!!!

* * *

الشبيح الأكبر

كتب خطيب بدلة:

ومما يتصل بسيطرة الفاسدين والمفسدين على الساحة الرياضية في سورية.. رويت لنا طرفة تشبه الأساطير من فرط غرابتها،.. ملخصها أن أحد الشبيحة الكبار كان يدعم الفريق (فاء) لكرة القدم، دعماً غير محدود.. وكان يرافق الفريق إلى المحافظات الأخرى حينما تكون المباراة خارج أرضه.. وقبل بدء المباراة كان يستخدم مع الحُكام أسلوب الترغيب، (ويؤجل أسلوب الترهيب إلى حين الضرورة القصوى).. من أجل أن يغضوا الطرف عن أخطاء فريقه، ويتشددوا مع لاعبي الفريق المنافس.. ويَعِدُهم، إن هم ساعدوا الفريق (فاء) على الفوز، بمكافآت مالية مجزية، ويختم كلامه بتقديم رقم هاتفه الخاص لهم، عارضاً عليهم حل أية مشكلة خاصة بهم في دمشق، في أية دائرة أو وزارة، في أي وقت لاحق.

في إحدى المباريات.. تبين أن ضمائر حكام المباراة كانت من النوع المعافى.. فلم يكترثوا لعروض الشبيح السخية.. وحَكَّموا الشوط الأول من المباراة بالعدل، والنزاهة.. فكانت النتيجة واحد صفر للفريق المنافس.

بين الشوطين تمكن (الشبيحةُ المساعدون) من خطف الحكام، وأدخلوهم عنوة إلى غرفة خاصة، وهناك استخدموا معهم أسلوب التقريع، والتوبيخ، والنكش في الصدغ، والإمساك بالفك السفلي بقوة، إلى أن دخل الشبيح الأكبر، وصرخ بهم أن كفوا عن ذلك، فكفوا.. ووقتها أفهم الحكام أن الذباب الأزرق لن يعرف إليهم سبيلاً إذا لم يربح الفريق (فاء) المباراة.. بنتيجة(٢-١).

أيقن الحكام أن الحديدة حامية جداً، وأن هذا الضرب -كما يقول المثل- ليس ضرب أصحاب، وسرعان ما استأذنوا من الشبيح الأكبر، واختلوا ببعضهم البعض لمدة دقيقتين، اتفقوا على مجموعة الإجراءات التي تجعل الفريق (فاء) يربح المباراة، وفي أسوأ الأحداث يتعادل مع الفريق الآخر.

ومع بداية الشوط الثاني.. أخذت الرياح تسير لا كما تشتهي السفن، فلم تمض دقائق حتى سجل الفريق الآخر هدفاً ألغاه حكم التماس بحجة التسلل! والفريق فاء كان في أسوأ حالاته، إذ بقي مُعَسْكِراً في منطقته الدفاعية، وبدأ الوقت يمر على نحو دراماتيكي، والحكام يختلسون النظر بالتناوب نحو الشبيح الأكبر الذي كان يستشيط غضباً في أعلى المنصة.. فما كان من حكم الساحة إلا أن اقترب من قلب هجوم (فاء) وهمس له بكلام جعله يختطف كرة ويمشي بها بضعة أمتار.. ثم وقع من تلقاء نفسه على الأرض، في منطقة وسط الملعب، فأطلق الحكم الصافرة معلناً عن ضربة جزاء!!!..

لم يكترث الحكم لاعتراضات لاعبي الفريق الآخر وجمهوره، وأمر بتنفيذ ضربة الجزاء.. ولأن سوء الحظ كان ملازماً له ولزميليه حكمي التماس فقد سدد مهاجم (فاء) الكرة خارج المرمى!.. غضب الحكم وتشاور مع زميليه، ثم أمر بإعادة تنفيذ الضربة بحجة أن الحارس تحرك!!

مرتين أو ثلاث مرات أعيد تنفيذ الضربة.. إلى أن دخلت المرمى أخيراً.. ووقتها.. ماذا تتوقعون أن يحصل؟ إن حكم الساحة وحكمي التماس والحكم الرابع ارتموا فوق المهاجم الذي سجل الهدف.. وشرعوا يقبلونه، ثم رفعوا أيديهم بالتحية إلى جمهور (فاء) والشبيح الأكبر!

* * *

زيارة سياحية

كتب إياد جميل محفوظ:

بعد أن قدم رئيس حكومة دولة عربية (مناضلة) واجب العزاء بالشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم حاكم دبي السابق.. توجه في زيارة سياحية للمدينة برفقة سفير دولته (المناضلة) في دولة الإمارات العربية المتحدة، للاطلاع على معالمها، والوقوف على التواتر المتسارع والمدهش للنهضة الحضارية والعمرانية التي تشهدها الإمارة.

حين انتهت الجولة سأل السفيرُ رئيسَ حكومته بصوت لا يخلو من الرصانة والدهاء:

- ما رأيك؟..

أجاب رئيس الحكومة بنبرة فيها كثير من الإعجاب والعفوية:

- أعجوبة.. برأيي أنها غدت من مصاف المدن العالمية.. ما رأيتُه اليوم يعد إنجازاً رائعاً وعملاً خارقاً إلى حد الإعجاز.

فعاجله سعادة السفير بلهجة مغلفة بقدر كبير من الخبث والذكاء:

- تصور يا سيدي.. كل هذا الصرح أنجزوه وما عندهم حزب قائد.. ولا قيادة قطرية.. ولا (الرفيق عبد الله الأحمر)!

* * *

على رأس عمله

كتب خطيب بدلة:

على ذكر عبد الله الأحمر.. حدثني الصديق الدكتور محمد مرعي الفروح من مدينة الصنمين بمحافظة درعا، قال:

- أوفدت إلى موسكو (عاصمة روسيا والاتحاد السوفييتي) في سنة (١٩٧٠) لدراسة الدراما السينمائية، وكان إيفادي ممهوراً بتوقيع الرفيق المناضل عبد الله الأحمر.. كان عمري يومها إحدى وعشرين سنة.. تزوجت في موسكو من امرأة تونسية، وخلفنا ولدين هما ادونيس وايزيس. عدت إلى الوطن سنة (١٩٨٠) متخرجاً بصفة كاتب سيناريو.. وتعينتُ لدى المؤسسة العامة للسينما.. وبعد حوالي عشر سنوات تفتت الاتحاد السوفييتي، تبعته دولُ المنظومة الاشتراكية كلها.. وما يزال الرفيق المناضل عبد الله الأحمر على رأس عمله أميناً قطرياً مساعداً لحزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا.

بقيت في عملي حتى أحلت على المعاش في سنة (٢٠٠٩).. وعندي سبعة أحفاد.. الله يخلِّ أولادَك وأحفادك.

والآن، وقت رواية الطرفة، نحن في اواسط تموز يوليو٢٠١٢))، وسورية خربت.. وما يزال الرفيق المناضل عبد الله الأحمر على رأس عمله!

خطوة خطوة

ورويت لنا، كذلك، طرفة عن رجل كان يُعرف في بلدته بلقب "الغشيم"،

لأنه كان بسيطاً، ضحل الثقافة والمعرفة، بطيء البديهة، انطوائياً، لا يُخالط الناس، ولا يتفاعلُ مع المجتمع.. وفجأة ظهرت لديه ميولٌ يمكن أن نسميها- من باب التجاوز- سياسية.. فقد رأى "الغشيم"، بأم عينه، ولمس بأصابعه، كيف أن الناس، في بلدته، يدخلون في حزب البعث أفواجاً، وكيف كان الانتهازيون منهم، وما أكثرهم، يتبارون في الانبطاح والنفاق والتزلف لأولي المراتب الأعلى في الحزب، ولعناصر الأمن، ولموظفي الحكومة البارزين، من أجل أن يساعدوهم على الاستفادة من هذا الوضع "الأجقم" ليصلوا إلى مناصب صغيرة أو كبيرة.. ولكنها، في المحصلة، مناصب ذات مغانم مادية ومعنوية..

صاحبُنا "الغشيم"، ولأنه غشيم، فقد وضع في مقدمة طموحاته أن يصل إلى أدنى منصب حزبي على الإطلاق، وهو (عضو الفرقة الحزبية)!!!!.. وشرع يعمل في آناء الليل وأطراف النهار، ويضع ثقله الكامل، لكي يحقق هذا الحلم.

سألوه في مجلس عام:

- لماذا ترغب في أن تكون عضو فرقة حزبية؟

فقال بطريقة سردية رتيبة وكأنه طالب يحفظ دروسه غيباً:

- من أجل أن تتاح لي الفرصة فأساهم في تحقيق الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج، والحرية، والاشتراكية، وأن أناضل ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية والطابور الخامس وأذناب الاستعمار!

وفي اليوم التالي استفرد به أخوه الأكبر وقال له:

- ولاك غشيم.. أنا لم أشتر الكلام الذي قلته البارحة بنصف فرنك مبخوش.. قل لي الحقيقة.. أنت لماذا تستقتل من أجل أن تكون عضو فرقة حزبية؟

قال الغشيم بلهجة إسرار:

- أنا أحب التدرج يا أخي.. دعني أبدأ بعضوية الفرقة الحزبية اليوم.. وخطوة خطوة أصير في القيادة القطرية..أم أنك ترى أعضاء القيادة القطرية أفهم من أخيك؟!

صاحب الحظ السعيد

في حلب، عاصمة الشمال السوري، يقولون للكناية عن الأمور التي تمشي من دون معايير، أو تخطيط، أو تفكير، أو تدبير: طَجِّتْ لعبِتْ!

ومعلومٌ أن آلية ملء الشواغر المتعلقة بمديري المؤسسات الاقتصادية، والدوائر الحكومية، يكون باقتراح ترفعه الفرق الحزبية، إلى الشعب الحزبية، ثم إلى الفروع الحزبية، ثم إلى القيادة القطرية.

وأما الشروط التي يجب أن تنطبق على المرشح فهي شائعة ومعروفة للجميع:

١- أن يكون بعثياً.

٢- أن يكون متوسط الذكاء.. أو دون المتوسط.

٣- أن يكون تقييمه لدى الأفرع الأمنية جيداً أو ممتازاً. (ويُفضل كاتبُ التقارير من بين المتنافسين).

٤- أن يتبناه أحد الأشخاص الذين لهم حظوة لدى الأفرع الأمنية!

نتيجة الاجتماع

يُحكى عن رجل رشح نفسه لرئاسة مؤسسة اقتصادية دسمة (فيها مجال واسع للنهب)، واستبسل في تقديم الأعطيات والهبات والرشاوي للمتنفذين.. حتى استطاع أن يصل إلى أحد أعضاء القيادة القطرية الذي تبناه، ووعده أن يضع ثقله كله لتعيينه في هذا المنصب. وقال له:

- غداً، سيعقد اجتماع للقيادة في تمام الواحدة ظهراً، وسوف يتقرر الأمر.

اختلطت عند صاحبنا مشاعر الأمل، بالقلق، بالترقب، بالخوف من الخيبة، بالحذر، بالأحلام، وعاد لا يستطيع أن المكوث في مكان محدد.. وسرعان ما امتطى سيارته وخرج يتجول في الشوارع، يذهب من مكان إلى آخر.. حتى وجد نفسه، أخيراً، على باب مبنى القيادة القطرية.. فنزل، ودخل المبنى.. وشرع يرجو الأذنة

(الفراشين) بأن يسمحوا له بالوقوف في الممر المؤدي إلى قاعة الاجتماعات.. ثم لجأ إلى المغامرة، وغافل الآذن وفتح باب قاعة الاجتماعات، فرأى صاحبه الذي وعده بالتعيين في المنصب موجوداً بين المجتمعين.. فقال له، بلغة الإشارة: بَشِّرْ، رفيق! فرفع له صاحبُه إصبعيه السبابة والوسطى (علامة النصر)، فخرج من القاعة مثل السهم، نزل السلالم راكضاً، إلى الباب الخارجي، حيث جلس في السيارة، واتصل بصاحبته يبشرها بأن الأمر قد قضي، وأنه، في الصباح، سيكون وراء طاولة الإدارة في المؤسسة،.. واتصل ببعض أصدقائه، وبزوجته.. وكاد يموت من شدة الفرح.

بعد ساعة واحدة فقط جاءته خيبة الأمل، عندما عرف أن المنصب قد (رسا) على غيره.. فذهب إلى صاحبه يعاتبه، قائلاً:

- يا رفيق، أنا لما دخلت إلى قاعة الاجتماعات، وأنت لمحتني، ألم ترفع لي إصبعيك السبابة والوسطى؟

قال صاحبه:

- بلى.. رفعتُهما.. لأنني.. لم أجد من المناسب أن أرفع لك الوسطى وحدها؟!

إبليس على الخط

ثمة طرفة جميلة سمعتُها قبل بضع سنوات، تتعلق، هي الأخرى، بآلية تعيين أهل المناصب، تنص على أن زوجة أحد المسؤولين، وهي امرأة مغناج، بيضاء البشرة، أو كما يقولون: (على وجهها لحسة لبن)، تعلقت بكتف زوجها المناضل، الثائر، المكافح، المهيوب، أثناء ما كان يستعد للخروج، صباحاً، إلى عمله، وطلبت منه، وهي (تلعبط) بساقيها المتحررين من الملابس في الهواء، أن يعين أخاها الذي يحمل- على سبيل الافتراض- اسم (شادي) رئيساً للدائرة الفلانية!

قال لها وهو يدفعها عنها برفق، لكي تفك يديها عن رقبته:

- مؤكد أنك تمزحين، حبيبتي!

قالت:

-لا ورحمة نانتي عيوش، لا أمزح.. ولماذا تظنني أمزح؟ هل الناس الذين تعينونهم، يومياً، في المناصب المختلفة، أحسن من أخي شادي؟ أليس أخي عضواً عاملاً في الحزب؟ وهل يشك أحد في ولائه للقيادة الحكيمة، وفي عدائه للاستعمار والصهيونية والرجعية، وفي وقوفه إلى جانب محور الممانعة؟

قال:

- رويدك يا امرأة.. إن الأشخاص الذين نعينهم في المناصب، حقيقةً، ليسوا من علية الناس، ولا من أكفئهم، ونحن، الذين نعينُهم، لنا عليهم عشرات المآخذ والملاحظات.. ولكن، لتعلمي أنهم، جميعاً، ومن دون استثناء، أعضاء عاملون في حزب البعث العربي الاشتراكي، وموالون للقيادة الحكيمة، ومعادون للاستعمار والصهيونية والرجعية، ومؤيدون لمحور الممانعة، مثل أخيك شادي، ولكنهم، مع ذلك، أفضل منه بكثير، فشادي، عدا عن كونه لا يمتلك أية مؤهلات علمية، إنسان ضعيف الشخصية، وتشتوش، وأهوج، يتكلم في الوقت غير المناسب، ويضحك من دون سبب، ولا يوجد أحلى منه وهو ساكت، وأما إذا حكى فالله تعالى يجير السامعين من تأتأته وفأفأته وتفتفته!

حردت الزوجة ذاتُ الجسم الرشيق (الملعبط) والبياض الأخاذ من كلام زوجها المناضل، وتركته وعادت أدراجها نحو الداخل، فما كان منه إلا أن استوقفها، واستدناها، وشرع يقدم لها الاعتذارات عما بدر منه، ووعدها بأن يفعل المستحيل ليكون أخوها شادي رئيساً للدائرة المطلوبة!

بعد طول تفكير، وصفن، وشهيق، وزفير، وضَرْب الأخماس بالأسداس، اهتدى المسؤول المناضل إلى الخطة التي لا بد أن إبليس اللعين حينما رآها تجري أمامه قد اندهش منها، ونوى أن يحكي تفاصيلها لأحفاده الأبالسة الصغار (القطاقيط) حينما يتقدم به العمر، ويهرم.

جمع المسؤول المناضل مرؤسيه، وطلب منهم ترشيح مَن يرونه مناسباً، وكفؤاً، ليكون رئيساً للدائرة الفلانية!

اقترحوا عليه رجلاً اسمه (عدنان) يحمل شهادة الليسانس في الاختصاص المطلوب، إضافة إلى ماجستير في مجال إدارة الأعمال، وهو عضو عامل في الحزب، وفي الوقت ذاته قوي الشخصية، ومحترم.

رحب المسؤول المناضل بفكرة ترشيح عدنان، وأمر بتسجيل الاقتراح في محضر الجلسة.. وفي اليوم التالي اختلى بصديقه (مازن)، وهو إنسان شَبّيح مشهور بعلاقاته السيئة مع السماسرة و(مُقَطِّعي الدعاوي) واتفق معه أن يذهب إلى دمشق، ويسعى لترشيح نفسه لمنصب رئيس الدائرة الفلانية، وأن يكتب تقريراً من كعب الدست يشوه به سمعةَ عدنان، ويوزع نسخاً طبق الأصل من التقرير على الأفرع الأمنية المختلفة إضافة إلى القيادتين القومية والقطرية ومكتب الأمن القومي.

نفذ مازن الاتفاق بحذافيره..

جمع المسؤول المناضل مرؤسيه مرة أخرى وقال لهم:

- لقد وَقَعْنا، يا رفاق، في مأزق كبير، فالرفيق مازن، كما تعلمون، يده طايلة في الشام، ولسانه سليط، وقد استطاع، للأسف، أن يشوه سمعة رفيقنا المحترم عدنان إلى درجة أنه (حرقه حرقاً).. فماذا نفعل؟ هل نعين مازن؟!

قالوا بصوت واحد:

- لا، نرجوك لا.. هذا يمكن أن يخرب الدائرة الفلانية فلا تقوم لها من بعده قائمة..

قال:

-معكم كل الحق. لقد أصبحنا، الآن، في الموقف التالي.. يجب علينا أن نملأ الشاغر في الدائرة الفلانية، ونعين شخصاً ما، حتى ولو كان ضعيف الإمكانات، بصفة رئيس لها.. المهم أن يكون طيب القلب، وليس له شوكة ولا دباحة..

وسكت لحظة.. ثم قال:

-ما رأيكم بالرفيق (شادي) شقيق زوجتي؟

(وافقوا عليه بالإجماع.. وأصبح رئيساً للدائرة الفلانية لسنين طويلة!)

الهيبة

إن الناس، في عصر الجنرال الأسد، وبضمنهم أصحاب المناصب، مهما علت، كانوا هامشيين، نكرات، لا قيمة لهم، ولا رأي، ولا هيبة..

وقد رويت لنا، ضمن هذا الإطار، طرفة بطلها رجل يدعى «سين» عينوه محافظاً في إحدى المحافظات قليلة الأهمية (أعني المحافظات التي لم يكن حافظ الأسد، ولا ابنُه من بعده يوليها ما يليق بها من الاهتمام.. مثل إدلب والقنيطرة والرقة ودير الزور وريف دمشق)..

كان «سين» جالساً في مكتبه، ذات صباح، يستعد للعمل وتسيير أمور الحكم، وإذا بحاجبه يعلمه بأن مختار إحدى القرى، ولنطلق عليه اسم «صاد» قد أتى للسلام عليه.

قال المحافظ «س»:

- فليدخل.

كان «سين» يعتقد أن مثل هذه الزيارات تنتهي بسرعة.. فالضيف يمكن أن يشرب فنجاناً من القهوة المرة، ويُعَرِّفَ على نفسه، ثم يُبدي استعداده لأن يكون جندياً في خندق القائد المفدى حافظ الأسد.. وينصرف.

ولكن هذا الضيف خيب أمله.. ذلك أنه شرب فنجان القهوة ورفعه إلى الأعلى، وهزه، كناية عن الاكتفاء، وبقي جالساً.

المحافظ «سين» طلب له كأساً من الزهورات، شربها الضيف، وقال:

- دايمة.. إن شاء الله بالنصر على الاستعمار والإمبريالية وأذناب الاستعمار..

إلخ.

بلا طول سيرة.. شرب الضيف «صاد»، خلال الزيارة، سلسلة طويلة من كؤوس الشاي والقهوة التركية والميلو و(المتة).. وبقي جالساً على كرسيه لا يريم. وكان المحافظ يسير الأعمال التي تأتي إليه، أولاً بأول، ويلتفت نحو صاد فيجده مقيماً ثاوياً.

شارف الدوام على الانتهاء وهو جالس.. حتى تجرأ المحافظ وقال له:

- عفواً.. يعني.. حضرتك.. لم تقل لي.. أنت ماذا تريد بالضبط؟

قال صاد:

-أريد (الهيبة)..

استغرب المحافظ واستفهم منه قائلاً:

- عفوا.. ما المقصود بـ (الهيبة)؟

قال:

-لقد تكرمتم علي بتعييني مختاراً في قريتي.. وهذا شرف عظيم، أريد أن أقوم به على أكمل وجه.. ولكنني لا أستطيع ذلك ضمن الظروف الحالية..

قال المحافظ:

- لماذا؟

قال صاد:

- لأنني لا أمتلك (الهيبة) اللازمة.. فلو قمت (جنابك) يا سيدي المحافظ، وأعضاء المكتب التنفيذي في المحافظة، بزيارتي في القرية، وقتها أستمد أنا الهيبة من هيبتكم، وتقع هيبتي، بفضلكم، في نفوس أهل القرية، و....

لم يستطع صاد أن يكمل فكرته، ذلك أن المحافظ «س» انفلت بضحك عالٍ، طويل، مجلجل.. واستمر يضحك ويقهقه.. ثم وقف، ووضع يده على كتف الضيف الذي وقف على قدميه وهو في قمة الاستغراب والاندهاش.. وبصعوبة

بالغة استطاع المحافظ أن (يُفَرْمِل) الضحك وقال له:

- الهيبة! هل قلت (الهيبة)؟! طيب وحياة من ألهمك على زيارتي، وأرسلَك إلى مكتبي في هذا الصباح المبارك، فجمعنا من دون ميعاد، أنا أعيش في هذا الوطن بأقل ما يمكن من (الهيبة)، وأقسم لك، يا أخي، بالله، وبما أرتجي منه، لو قَلَّتْ هيبتي الحالية مقدار أنملة لتجرأتْ زوجتي وتجرأ معها أولادي، وهم أقرب الناس إلي، على اللهو بلحيتي، ولا تستغرب أن يتشجع أحدُهم، في لحظة انخفاض طارىء (للهيبة) فيبصق في وجهي، أو كما يقول أهل حلب: يبزق فصط وجِّي!

* * *

فرع واحد

كتب إياد جميل محفوظ:

قبل عدة سنوات، طلبتُ من مندوب العلاقات العامة في المؤسسة التي أعمل فيها بدولة الإمارات العربية المتحدة نقل إقامتي، وكانت ما تزال صالحة لمدة عامين آخرين، من جواز سفري القديم إلى جواز سفري الجديد.. فأفادني أن هذا إجراء بسيط ولا يتطلب إتمامه إلا بضعة أيام.

ولما كانت إجازتي ستبدأ بعد إسبوعين، فقد سعيتُ إلى إنجاز نقل إقامتي في تلك الفترة.

مضى الأسبوع الأول وما برح الجواب اليومي لمندوب العلاقات هو نفسه:

- إن الجواز ما زال قيد الإنجاز.

وحين لم يتبق لموعد سفري سوى أيام معدودات قررتُ التوجه بنفسي إلى دائرة الهجرة والجوازات في مدينة "العين" للاستفسار عنه، لعلّي أجد وسيلة ما للحصول عليه.

سألت موظف الاستقبال، وهو من مواطني دولة الإمارات، عن الأسباب التي أدت إلى تأخر معاملة نقل إقامتي.. فقال لي:

- لا داعي للاستعجال.

أخبرتُه أنني مضطر للسفر بعد يومين.. معتقداً أن هذه المعلومة ستدفعه إلى مساعدتي.. ولكنه لم يكترث،.. ولكي يتخلص من إلحاحي ولجاجتي قال لي:

- أخي.. جوازك محتجز لدى الأمن!

ولأنني أزعم بأن العديد من الصداقات قد اكتسبتُها خلال عقدين من العمل في مدينة "العين" فقد أقبلتُ عليه بعفوية شديدة وسألته:

- في أي فرع من فروع الأمن هو يا ترى؟

عندئذ انقلب ضاحكاً.. وأجابني بسخرية بادية:

- فرع أيش؟!.. نحن هنا في الإمارات لا يوجد لدينا سوى فرع أمن واحد!

* * *

بالمئات

كتب خطيب بدلة:

الكلام عن الفروع، أو الأفرع (على وزن الأذرع) الأمنية في سوريا شَرْحُه يطول.. فكل سوري يعرف عشرات القصص والحكايات والمواقف مما حصل له شخصياً، أو لأحد أقاربه، أو لأحد معارفه، في أحدها.. ونحن السوريين، إذا سمعنا بأن رجلاً ما قد اعتقل سرعان ما نسأل ذويه بعفوية: (أي فرع أخذه؟)!! فيكون الجواب: المخابرات السياسية،.. أو الجوية،.. أو العسكرية،.. أو المباحث الجنائية، أو الفرع الخارجي، أو فرع فلسطين.. إلخ..

ومن أغرب ما مر معي- أنا شخصياً- أثناء أحداث سنة ٢٠١١، أن اسمي عُمم على الحواجز الأمنية، ضمن قائمة كُتب عليها ما معناه أن الأشخاص المذكورين فيها مطلوبون للفرع (٢٧١) !!!!

ماذا تريد؟

وأما الطرفة الأكثر رسوخاً وانحفاراً في ذاكرتي فتلك التي حدثني بها الشاعر الكبير الصديق (ف).. إذ قال:

- إن حزب البعث العربي الاشتراكي- كما تعلم- هو حزب قومي بامتياز!! وهو من أكثر المدافعين عن العروبة، وعن الوحدة العربية الكبرى!!

واستطرد موضحاً:

- في بعض الأحايين يكون طرح البعثيين متواضعاً، فيقبلون بوحدة جزئية

بين دولتين عربيتين متجاورتين، مؤقتاً، شريطة أن تكون هذه الوحدةُ الجزئيةُ ممراً إجبارياً يُفضي إلى الوحدة العربية الكبرى.. من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر!!

وقال:

- وكما تعلم فإن حزب البعث العربي الاشتراكي قد أنجز ثورتَيْه الجبارتين في قطرين عربيين متجاورين هما سوريا والعراق.. ومن فرط حرص الرفاق البعثيين في الدولتين (المناضلتين) على الوحدة العربية فقد شهدت العلاقةُ بن الدولتين قطيعة (تحريمية) استمرت عقوداً من الزمن!!.. وأنت سيدُ العارفين فإن المواطن السوري الذي كان يحصل على جواز سفر، لأول مرة، كانوا يمهرون جوازه بعبارة يُفردون لها صفحة خاصة تقول: يسمح لحامل هذا الجواز بالسفر إلى كافة دول العالم (عدا إسرائيل والعراق)!!!!! وعلى جواز سفر المواطن العراقي يكتبون: يسمح لحامل هذا الجواز بالسفر إلى كافة دول العالم (عدا إسرائيل وسوريا)!!!!!

ولكن.. في أواخر السبعينيات.. حصل انفراج مؤقتٌ (لا يعرف سببه إلا الله) في العلاقة بين الدولتين.. فأصبحت العلاقات جيدة.. وأصبح بإمكان المواطن العربي في إحدى الدولتين زيارة الدولة الشقيقة الأخرى.. ضمن شروط محددة..

وقال ف:

- أنا مثلاً.. ولكوني شاعراً معروفاً على النطاق العربي، دُعيت للمشاركة، آنذاك، في مهرجان المربد بالعراق. تقدمتُ بطلب للحصول على جواز سفر وتأشيرة خروج لزيارة العراق.. وبطبيعة الحال فقد طُلب مني مراجعة الفرع رقم (...) من أجل الموافقة.

يا سيدي، ويا تاج راسي.. وعينك لا ترى إلا النور والخير!!.. ذهبتُ إلى الفرع المطلوب في تمام الساعة الثامنة والنصف.. سلمتُ على موظفي الاستعلامات فلم يردوا سلامي، ورمقوني بنظرة شوساء (جانبية) عامرة بالكراهية والاستعلاء.. حاولتُ أن أُعَرِّفَهم بنفسي، عسى أن تكون شهرتي قد بلغت أحداً منهم فيهب لمساعدتي.. لم يصغوا إلي. الخلاصة.. لم يسمحوا لي بالكلام حتى التاسعة

والنصف.. حيث أشار إلي أحدهم بيده أن آتي نحوه (وكأنني أجير الذي خلفه)، وسألني باقتضاب:

- شوبدك؟ وأتبعها بحرف (آ)؟ التي تزيد في طينة الاحتقار بلة إضافية.. فشرحتُ له ما أنا قادم لأجله، فرفع السماعة وضرب رقم ثلاثياً وبدأ يتحدث بصوت أغنّ ممعوس، ثم أغلق السماعة وقال لي:

- استنى خمس دقايق كمان!.. وخمسُ الدقائق امتدت حتى العاشرة.. حيث سمحوا لي بالدخول، ورافقني أحد العناصر إلى أحد المكاتب وطلب مني الانتظار خمس دقائق..

أشعل صديقي الشاعر الكبير (ف) سيجارة.. وشفط منها نفساً عميقاً.. ثم قال لي:

- لن أغرقك بالتفاصيل المملة.. وسوف أقفزَ معك حتى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.. فوقتها كنت قد أصبحت في حضرة (المعلم) وأنا معصوب العينين.. قال لي، ويبدو أنه كان في حالة رائقة:

- شو يا أستاذ (ف)؟.. قال بدك تسافر للعراق!

قلت له:

- هذا الكلام غير صحيح.

وأشعلته.. صاح:

- شو؟ تقول غير صحيح؟!.. اسمع ولاه.. اسمع وركز معي.. أنت لما تكون بره هذا المكان يمكن تلاقي ناس يحبوك ويحترموك، ويمكن في ناس مفكرينك بقد (الله).. ولكن أنت هون ولا شي.. هون أنا الكل بالكل.. هون أنا.. أنا.. أنا ربك الأعلى ولاه!

قلت له:

- عفواً.. لا أرى ما يدعوك للغضب.. أنا، بصراحة، كنت أضع في ذهني أن

أذهب إلى العراق وأحضر مهرجان المربد.. والآن أقلعت عن هذا.

هدأ قليلاً وقال:

- طيب طيب.. هاي مانا مشكلة.. قل لي لأشوف.. شو بدك هلق؟

قلت له بهدوء شديد:

- أريد من سيادتك أن تساعدني في تحقيق أمر واحد فقط.

قال:

- شو هو؟

قلت له:

- أريد أن أخرج من هنا!!

أنت من؟

أمضى صديقي العزيز «حرب» القسم الأكبر من عمره (وهو الآن يدق حيطان الستين) في مقارعة الناس المغرورين الذين يعتقدون أنهم أناس ذوو قيمة، بينما هم، في نظره، لا شيء..

وصديقي «حرب» يستخدم طريقة رائعة في التعبير عن هذه الأفكار، فقد حول جدران غرفته الخاصة إلى ما يشبه السبورة التي يستخدمها المعلمون في شرح دروسهم.. ولتسويغ هذا الأمر كتب على أول جدار بقرب باب الغرفة عبارة (الحيطان دفاتر الفهمانين!)، وفي صدر الغرفة كتب السؤال الاستفزازي التالي: أنت مين مفكر حالك؟

(ملاحظة: تذكرتُ صديقي «حرب» وكتاباته الجدارية من خلال ما ورد في رواية صديقي الشاعر (ف) عن زيارته الحافلة بالطرائف للفرع رقم (..)، إذ قال: (حاولتُ أن أُعَرِّفَهم بنفسي، عسى أن تكون شهرتي قد بلغت أحداً منهم فيهب لمساعدتي)..

وقد تبين لـ (ف) أنه، بجلالة قدره، هناك، في منطقة الفرع الأمني، عبارة عن نكرة.. أو (ولا شي)، فحتى موظف الاستعلامات لم يَكْتَلْ بكيله، بل إنه أشبعه احتقاراً.

فارس زرزور

ثمة حكاية واقعية طريفة رواها الأديب الروائي السوري الكبير الراحل فارس زرزور(١٩٣٠- ٢٠٠٤)، ونشرها في إحدى الصحف قبيل وفاته، مفادُها، بحسب ما عَلِقَ منها بذاكرتي، أنه ذهب لكي يُنجز إحدى معاملاته الإدارية في إحدى الدوائر الحكومية، وسلمهم إضبارته، وعاد في اليوم التالي ليستلمها بعد إنجازها،.. وكان ثمة ازدحام رهيب عند باب المديرية، وتدافع، وتدافش، ولغط، وكلمات نابية متداخلة، وهو، الشيخ الكبير يتقدم ويتأخر، وحينما يقترب من الباب ويوشك على الوصول يلفظه الجمع.. دواليك حتى قذفته إحدى الموجات إلى الداخل، وكاد يسقط على الأرض، فتلقاه أحد الموظفين، وأجلسه على كرسي صغير، ثم سأله:

- ما اسمك؟

قال:

- فارس زرزور..

فتهلل وجه الموظف وقال له:

- حقاً؟ اسمك فارس زرزور؟

ارتاحت نفس فارس، وخمن أن هذا الرجل لا بد أن يكون واحداً من الجمهور الأدبي، وقد بلغته شهرته، وعرفه، وأحبه من خلال إبداعه الروائي!!..

وزاد الرجل من عنصر الدهشة حينما أدخله إلى غرفة نظيفة ومرتبة، وأغلق الباب، ودعاه، بكل تهذيب، للجلوس على كنبة وثيرة، وطلب لأجله فنجاناً من القهوة.. وقدم له سيجارة أفرحته (باعتبار أن فارس زرزور كان يدخن بشراهة

من دون أن يحمل علبة سجائر).. ثم اقترب منه، وقال له بلهجة رقيقة متوسلة:

- بالله عليك.. شوبيقرب لك محمد خير زرزور صاحب (فلافل الزرزور الشهيرة)؟! الله يخليك يا أستاذ، أريد أن أُشَغِّل ابني عنده في معمل الفلافل، بركي- بالمَعِيّة- بتحكي لنا معو؟!.. وبالنسبة لمعاملتك اعتبرها منتهية، يا دوب تشرب القهوة، وتاخدها وتمشي!

* * *

حلب ٧٩ - ١١

كتب إياد جميل محفوظ:

أقيمت، في خريف العام (١٩٧٩)، على أرض الصالة الرياضية بحلب، مباراةٌ دولية بكرة السلة بين نادي الاتحاد الحلبي بطل سورية (وقد كنت واحداً من أبرز لاعبيه الأساسيين) ونادي "البارتيزان" بطل يوغوسلافيا، ضمن الأدوار التمهيدية لبطولة الأندية الأوربية التي كان يشارك فيها أبطال البلدان المطلة على البحر الأبيض...

وقد أسفر هذا اللقاء عن فوز الفريق الضيف بنتيجة:(٦٩-٩٤).

الحَكَم الدولي الروماني، بعدما انتهى من تحكيم المباراة، رغب بالبقاء في مدينة حلب ليومين آخرين، بغية زيارة معالمها.

سمح لي والدي، آنذاك، أن آخذ سيارته لاستخدامها في تحقيق رغبة الحكم الروماني بالتجوال في أحياء المدينة والتعرف إلى حضارتها العريقة.

أثناء قيادتي للسيارة في شوارع حلب، بدا مزاجُ صديقنا الروماني متأرجحاً بين السرور والتوتر، دون أن أدرك أنا أسباب ذلك.

وبعد يوم طويل من الفرجة والمتعة كان لا بد لي من الشعور بالاعتزاز حين نعتني الحكم الدولي بـ (السائق الماهر)!!.. وازداد غروري حين أفصح أن إعجابه هذا ينسحب على سائقي المدينة جميعهم.. فكلهم يتمتعون بحس عال في القيادة!

ثم أضاف أنه رغم تاريخه الحافل في زيارة العديد من دول العالم.. إلا أنه لم يشاهد مدينة تفتقر إلى الحد الأدنى من السلامة المرورية.. كما هو الحال في حلب.. فهذا الخليط العجيب من السيارات مختلفة الأحجام.. وتلك الدراجات الهوائية والنارية.. وهاتيك العربات التي تجرها حيوانات متنوعة الأشكال والنهوقات.. وأولئك الأشخاص الذين يعبرون الطرقات على نحو عشوائي وعبثي.. بدت له وكأنها تستبيح شوارع المدينة على نحو فظ ومرعب.

ومع ذلك كله لم تلتقط عيناه أي اصطدام، أو حادثة مرورية تذكر..

وأضاف: شعرتُ أني كنتُ محشوراً، خلال ساعات هذا اليوم، في عربة تائهة داخل حلبة (سيرك) ضخمة ذات قُطْر لامتناه، وزمن لا ينقضي!

أقول له بعد هذا السنوات الطويلة بشيء من الاستحياء:

"ماذا- يا صديقي العزيز- لو أنك زرت مدينة حلب الآن في العام (٢٠١١).. وقد تضاعف عدد السيارات والحيوانات في شوارعها، وعلى أكتاف أرصفتها، عشرات المرات؟.. ومازالت الفوضى العارمة طراز (١٩٧٩) تستبيح جسد المدينة وشرايينها؟".

* * *

يسوق في إدلب

كتب خطيب بدلة:

كتبتُ، أنا محسوبَكم، في سنة ٢٠٠٠))، طرفة صغيرة، نَشَرَتْها جريدة الدومري التي ابتدعها صديقي الفنان السوري العالمي المناضل علي فرزات..

تنص الطرفة على أن رئيس لجنة فحص السائقين في دمشق كان أمامه مجموعة من السائقين المتمرنين الذي جاؤوا من أماكن مختلفة، ليحصلوا على (شهادة السواقة)، وكان يوجه إليهم أسئلة تتعلق بمدى التزامهم بالتدريب قبل التقدم بالأوراق المطلوبة للحصول على الشهادة.. وفجأة التقطت أذناه كلمة (إدلب) ذكرها أحد المتمرنين، فأوقف لغط اللاغطين وسألهم:

- مَنْ منكم ذكر كلمة (إدلب)؟

قال أحدهم:

- أنا ذكرتها أستاذ، كنت أقول إنني أسوق سيارة والدي في إدلب، من دون شهادة سواقة، منذ خمس سنوات، ومع ذلك لم أتعرض لأي حادث!

فجأة.. وقف رئيس اللجنة على قدميه، وأحنى ظهره، ووضع كفه الأيسر على صدره كناية عن الاحترام الشديد، وقال للفتى الإدلبي:

- لا تؤاخذني يا ابني، والله لم أكن أعرف أنك تسوق في إدلب.. تفضل اجلس..

وطلب من المتمرنين الآخرين مغادرة المكان، واستدعى الآذنَ، وأمره بأن

يقدم فنجاناً من القهوة للضيف الإدلبي، بينما لسانُه لا يكف عن تقديم المزيد من الاعتذارات له، بسبب قلة الانتباه.. وأمرَ موظفيه بأن يمنحوه شهادة سواقة نظامية (من دون فحص)! وقال له، بينما عيناه تترقرقان بالدموع:

- يا بني.. إن من يسوق سيارة في إدلب، ولا يتعرض لحادث، إنما هو إنسانٌ بارعٌ في السواقة! ما شاء الله عليك يا ولدي.. فأنت سائقٌ معلم. أكرر اعتذاري لك!

يقصون يده

حدثني صديقٌ ينتمي إلى مدينة لا يقل عدد سكانها عن خمسين ألف نسمة، وهي مدينة تُشْتَهَرُ بأنها مكتظة بالكفاءات العلمية، عينوا لها رئيس بلدية بعثياً مُطَعَّمَاً على مُخْبِر، انطوائياً، لا أصدقاء له، كريهاً، منبوذاً، لا يحبه أحد، لا يحمل من الشهادات العلمية سوى شهادة أهلية التعليم الابتدائي (الصف الخاص)، وهو، بطبيعة الحال، يجهل كُلَّ الأمور التي لها علاقة بالأعمال البلدية والهندسية من تبليط وتزفيت وتخطيط بيوت وحارات وإزالة مخالفات..

وفوق كل هذه البلاوي والعلل والعاهات الموجودة في شخصيته كان جباناً، متخاذلاً، ليس لديه أية مبادرة لتحمل المسؤولية، وكان يجيب أي شخص يطلب منه توقيعاً على إجراء إداري أو عَمَلي بعبارة: إذا وَقَّعْتُ وكانت المعاملة مخالفة للقانون فإن مفتشي الهيئة المركزية للرقابة والتفتيش يقصون يدي!

وحينما أدرك ذلك العتليت الخرتيت أن أي أمر من الأمور اليومية للبلدية لا يمكن أن يمشي من دون توقيعه، لجأ إلى طريقة للتهرب لا تخطر في بال إنس أو جن، وهي أنه حفر في جدار غرفته المطلة على الشارع ثقباً واسعاً يتيح له أن يديم اختلاس النظر إلى مدخل البلدية.. فإذا ما رأى مواطناً قادماً متأبطاً إضبارة تحتاج إلى توقيعه سرعان ما يخرج من الغرفة ويقفل الباب ويتجه إلى حيث يجلس الآذن في البوفيه، ويهمس له بأن يُخبر ذلك المواطنَ بأنه غير موجود الآن، خرج

ولم يعد، وأن يخبره بأن الغائب حجته معه، ولا أحد يستطيع أن يتكهن بتوقيت عودته، وإذا ألح المواطنُ في السؤال لا بأس أن يحلف له على المصحف الشريف بأن هذه هي الحقيقة، ولا مانع من أن يضع إثم اليمين الكاذب في رقبته هو!

(أحد العارفين بسيرة هذا الكائن أكد لي أنه حينما كان يضطر للتوقيع على معاملة ما فإنه كان يبكي بحرقة)!

لا يقصون يده

أؤكد لقليلي الحظ الذين ستجبرهم ظروفُهم على قراءة هذا الكتاب أن العبارة التي كان رئيس البلدية يرددها لتبرير جبنه وتهربه من خدمة المواطنين، قصدي عبارة (يقصون يدي!) إنما هي عبارة مبنية على الكذب والباطل.. فالسلطة الحاكمة في سورية لم تقص يدَ أحد من اللصوص، والمرتشين، ومختلسي المال العام، ومهربي الدخان والحشيش والآثار والعملة الصعبة، ومخربي الاقتصاد الوطني، والمتقاعسين عن أداء واجباتهم الوظيفية طيلة عقود من الزمان.. لا بل إنها لم توجه لأحد منهم عقوبة أو لوماً أو توبيخاً إلا في حالة واحدة.. وهي حينما يشكُّ (الشباب الذين تعرفهم) بولاء الشخص السارق أو المرتشي أو مرتكب الجريمة أو المخالفة، ووقتها قد لا يكتفون بـ (قص يده)، وإنما يضحون به وبأسرته وربما بجارته أو قريته كلها..

* * *

النبلاء الستة

كتب إياد جميل محفوظ:

(هذه الطرفة كنت أنا، محسوبكم، طرفاً فيها، باعتبار أنني كنت، في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، لاعباً أساسياً في منتخب سوريا، والمنتخب العسكري لكرة السلة).

في شهر آب من العام ((١٩٧٨ مُنحتْ سوريا شرف تنظيم بطولة العالم العسكرية بكرة السلة.. وهذا ما دفع بالاتحاد الرياضي العسكري السوري إلى أن يضع خطة تدريبية واسعة، استعداداً لذلك الاستحقاق المهم.. وارتأت القيادة الرياضية أن تتوزع الفترة التحضيرية على ثلاث مراحل.. يُقامُ في الأولى معسكرٌ داخلي، في حلب، لمدة شهرين، لأن غالبية أعضاء المنتخب السوري هم من مدينة حلب.. وفي الثانية ينتقلُ المنتخب إلى إحدى الدول الأوربية للانتظام في معسكر خارجي يستغرق عشرين يوماً.. ويتابع المنتخبُ، في المرحلة الأخيرة، استعداداته في دمشق، على أرضية الملاعب نفسها التي ستقام عليها البطولة.

بدا الأمل ضعيفاً، إلى حد بعيد، في إمكانية سفر المنتخب إلى ألمانيا الغربية التي اختيرت كوجهة مناسبة لإقامة المعسكر الخارجي فيها.. تُعزى تلك المخاوف والشكوك إلى سببين رئيسين.. أولهما العبء الثقيل الذي سيقع على كاهل الميزانية المخصصة لاستضافة الدورة، بسبب تكاليف الرحلة الباهظة.. وثانيهما أن العلاقات بين سوريا والدول الأوربية ما يزال يغلفها قدر لا بأس به من البرود

والجفاء، إثر المواقف التي اتخذتها تلك الدول من الحكومة السورية إثر حرب تشرين الأول- أكتوبر (١٩٧٣).

وفي ظل هذه المعطيات الضبابية تملكتنا ظنون وهواجس بأننا لن نحقق حلمنا بالسفر خارج سوريا.. ولكن هذه الظنون والمخاوف تبددت، لا ندري كيف، حينما وجدنا أنفسنا على متن طائرة "اللوفتهانزا" متجهين إلى ميونخ.. كان ذلك في صباح يوم صيفي جميل من شهر حزيران ((١٩٧٨.

في الجو استغربنا، نحن أعضاءَ الفريق، وجودَ عدد كبير من أفراد البعثة برفقتنا، عدد يقترب من الأربعين شخصاً.. علما بأن إجمالي أعضاء فريق كرة السلة من لاعبين ومدربين وإداريين- في الحالات العادية- لا يتعدى عشرين فرداً.

كما شد انتباهنا وجودُ ستة فتيان آخرين معنا، تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشر والسادسة عشر ربيعاً، تبدو عليهم هيئة النعمة.. يحيط بهم عدد من الرجال الأشداء الذين تنضح وجوههم بالقسوة.

ومما زاد من دهشتنا وفضولنا، بعد أن استقر المقام بنا في ألمانيا، ذاك الاهتمام الشديد الذي أَوْلاهُ رئيسُ البعثة (وهو ضابط برتبة عميد) وبقيةُ الإداريين ذوو الرتب المتنوعة لأولئك الفتيان الستة على نحو بدأت فيه الغيرة تتسرب إلى نفوسنا.

وفي خلوة مع رئيس البعثة سأله أحدُنا عن سبب هذه الاهتمام العريض والرعاية الكبيرة بالفتية.. فأجابنا بنبرة ساخرة لا تخلو من حذر:

"لولا وجودُهم معنا.. لما أتيح للمنتخب السوري أن يظفر بموافقة الإيفاد من الجهات المسؤولة"!!!

وقتئذ لم تجد عقولنا أدنى صعوبة في أن تعي بأن هؤلاء الفتية ينحدرون من أصلاب رجال ذوي أهمية استثنائية.

وبهذا نكون قد أفلحنا في فك شيفرة السر الفريد.. ونصل إلى الحقيقة الساطعة التي تقول إننا، نحن نجوم سوريا بكرة السلة، نشكل "الكتلة المضافة"

من البعثة وليس العكس.. فما كان لنفوسنا الخجلة التي استولت عليها مشاعرُ الغيرة منذ بدأ الرحلة إلا أن تطرد تلك المشاعر اللئيمة.. وراحت تحل بدلاً منها نظرات الإعجاب والعرفان.. وأطلقنا على الفتية، إذ ذاك "النبلاء الستة".

في رحلة العودة إلى دمشق لم تلتقط أبصارُنا أي أثر للنبلاء الستة والحاشية الخاصة بهم.. فهتف أحدنا بصوت هامس:

- يبدو أن المعسكر الترفيهي للنبلاء الستة لم ينته بعد!

وأضاف آخر بنبرة فيها مسحة من الحسرة:

- أعتقد أنهم مازالوا يحتاجون إلى زيارة بلد أو بلدين أوربيين آخرين.. لعلهم آنذاك ينجحون في تحقيق الغاية من رحلتهم النبيلة.

في الأحوال جميعها كانت حناجرنا تصدح بالدعاء لهم بمزيد من السرور والبهجة في حلهم وترحالهم.. فالفضل الكبير لا يعود إليهم في رفعة المنتخب السوري فحسب.. بل إن الوطن كله مدين لهم ولذويهم بهذه المكرمة الجليلة!

* * *

تداعيات

كتب خطيب بدلة:

ذكرتني هذه الطرفة بواحدة سبق لي أن كتبتُها ونشرتُها ضمن كتابي "المستطرف الأخضر".. تحمل عنوان "طابور وراوند".

ولكنني هنا، وإخلاصاً مني للعملية الإبداعية، سأتَّخِذُ من صُيَّاغ الذهب قدوة، فهم يصهرون الذهب العتيق، ثم يعيدون صياغته بشكل جديد، ربما يكون الشكل الجديد للحلية المصوغة أجمل من الشكل السابق.

أحداث الطرفة وقعت في عهد الجنرال حافظ الأسد..

فلقد ترسخَ، على أيامه، تقليدٌ خطير للغاية، ملخصه أن الشعب يجب أن يُنكر نفسه، وإنتاجَه، وصناعتَه وإبداعَه، ويتواضع أمام حضرة هذا القائد التاريخي المفدى، وكل إنجاز يحققه المواطن السوري، في أي مجال من مجالات الحياة، يجدر به أن يهديه للقائد..

يجب على مَن يحصل على براءة اختراع، وعلى مَن يُبدع في الصناعة، أو في التجارة، أو في السياحة، أو في الموسيقا والغناء، أو في الرياضة، أن يقف أمام الكاميرا ويقول:

- أهدي هذا الإبداع.. أو الاختراع، أو الإنجاز.. إلى القائد التاريخي المفدى حافظ الأسد.

وحتى الفتية والفتيات (من لبنان الشقيق) الذين قاموا بعمليات استشهادية

في جنوب لبنان، ضد العدو الإسرائيلي، في المراحل الأولى من ظهور المقاومة (بعد الاجتياح ١٩٨٢)، فقد عرضت التلفزاتُ لهم تسجيلات (قبل الاستشهاد) يقولون فيها إنهم يهدون هذا العمل البطولي إلى القائد التاريخي المفدى حافظ الأسد.. وكانت المفاهيم تختلط علينا نحن المشاهدين السوريين البؤساء، فلا نستطيع أن نستوعب كيف تُهدى عملية مُصنفة في قائمة البطولات إلى شخص مستبد طاغية؟.. وكنا، أحياناً، نعتقد أن الديكتاتور شخص جيد، محبوب، بدليل أن أرواح الشهداء العظام تُهدى إليه!

ونعود إلى جوهر الطرفة.. وهي رياضية تتعلق بالملاكمة.. فقد نبغ، في تلك الأيام، ملاكم سوري، أوصلته التصفيات الأولى إلى إحدى الاستحقاقات العالمية.. وبلا طول سيرة، حينما صعد الملاكم إلى الطائرة، وجدها مليئة بالأشخاص والنبلاء، من موديلات مختلفة، الذاهبين للتنزه في أوروبا، بحجة مرافقته، وعلى حساب بطولته هو..

وحينما وقف على الحلبة، أمام خصم له من دولة تحترم الرياضة والمواطن، وبمجرد من أطلق الحكم صافرة بدء الجولة الأولى التي تسمى (راوند)، نفضه الملاكم الخصم بوكساً جعله يترنح ويسقط على الأرض.. الحكم انحنى بقربه وصار يعد له (ون تو ثري).. معطياً إياه فرصة للنهوض والمتابعة.. ولكنه لم يستطع.. وفي تلك اللحظة، ومن دون إذن، أو إحم أو دستور.. هرع الفريق التلفزيوني الوطني المرافق له إلى الحلبة، وانحنوا قربه، وسألوه.. ما هو شعورك؟.. فقال والدم يرشح من طرف فمه:

- أهدي هذا الراوند إلى القائد الرمز حافظ الأسد!!

وعلى إثرها أغمي عليه!

* * *

قرار حكومي

كتب إياد جميل محفوظ:

روى لي هذه الطرفة الغريبة الصديق زهير بوادقجي (وهو أحد نجوم كرة السلة السورية في السبعينيات والثمانينيات).

قال:

- تم تكليف المدرب السوفيتي الشهير فلاديمير للإشراف على تدريب منتخب سورية الوطني بكرة السلة.. وتحضيره لخوض غمار البطولة العربية الخامسة التي أقيمت في دمشق آواخر صيف العام (١٩٧٦).

ولما كانت تلك الدورة على قدر كبير من الأهمية، فقد شرعت الفرق السورية، لمختلف الألعاب، تستعد لها قبل بضعة أشهر من موعد انطلاقها.

انخرط عدد كبير من اللاعبين الدوليين في التدريبات اليومية التي كانت تجري على حصتين صباحية ومسائية.. وهذا ما جعل المدرب الروسي يشعر بالسعادة والرضا لهذا الالتزام والاهتمام.

بعد مضي شهر ونيف من التدريبات المنتظمة.. وفجأة، وبدون سابق إنذار، أخذ عددُ اللاعبين الذين يحضرون التمرين الصباحي يتضاءل.. في حين كان الالتزام كاملاً بالتدريب المسائي.. مما أثار دهشة واستغراب السيد فلاديمير.. وحين استفسر عن الأسباب أخبروه بأن شهر رمضان قد بدأ.

ولما كانت تلك الفترة تعد من العهود الشيوعية بامتياز، والشيء الطبيعي

أن فلاديمير لا يعرف (على وجه الدقة) ماذا يعني شهر رمضان بالنسبة للمسلمين، فقد قال ببراءة منقطعة النظير:

- أوكي أوكي.. سأطلب من المسؤولين هنا أن يقوموا بتأجيل شهر رمضان إلى ما بعد انتهاء البطولة!

* * *

حلف الهزائم

كتب خطيب بدلة:

تبين للسوريين، (بعد فوات الأوان طبعاً)، أن سيرهم في ركب السوفييت (والروس) لم يكن لمصلحتهم في يوم من الأيام. فالهزائم المتتالية التي مُني بها جيشنا في مواجهاته مع جيش اسرائيل، عبر السنوات السبعين الماضيات، تشير إلى وجود فرق كبير بين نوعية الأسلحة التي يزود بها الغربُ إسرائيلَ، والأسلحة التي كان يزودنا بها السوفييت، ومن بعدهم الروس، ووجود فرق أكبر في مقدار الدعم السياسي الدولي للطرفين، ومصداقيته..

(استدراك:.. مثلاً.. سمح الغرب لإسرائيل بامتلاك السلاح النووي.. وفي الوقت ذاته وضع ثقله كاملاً في سبيل منع أية دولة عربية من امتلاك مثل هذا السلاح.. بينما وقف الاتحاد السوفييتي مكتوف الأيدي حيال هذا العمل التاريخي الذي أدى إلى اختلال فظيع في التوازن الاستراتيجي بين العرب وإسرائيل.. هل نقول إنه كان متواطئاً في ذلك، وإن روسيا لم تحد عن خط سير هذا التواطؤ حتى الآن؟).

وأثناء الثورة السورية التي انطلقت في آذار (٢٠١١) كشر الروس عن أنيابهم معلنين عن كونهم (مافيا) تدعم النظام المستبد، الشمولي، الوراثي، ضد الشعب الطامح إلى التحرر.. وأسفروا عن أن قرارهم هذا تحكمه المصالح فقط.. ولا مكان للأخلاق فيه.

وكانت الهزائم العسكرية تتواكبُ، وتتزامنُ، على مدار تلك السنين كلها، مع

الهزائم الرياضية، في مختلف الألعاب، وفي مقدمتها كرة القدم، وكان يقف وراءها، دون أدنى شك، اعتماد القيادة السورية على المدربين السوفييت، ومن بعدهم الروس.

كيس من الحمص

وكان الموالون للنظام السوري، على مدى السنوات الثلاثين العجاف التي تربع فيها الجنرال حافظ الأسد، بدباباته ومعتقلاته، على سدة الحكم في سورية، (١٩٧٠- ٢٠٠٠) يشيعون بين الناس أننا يجب أن نفرح، ونغتبط، وإذا لزم الأمر نرقص للهزائم التي تُمنى بها الفرق الرياضية السورية، لأن سببها الرئيسي هو الحكمة التي يمتلكها القائد التاريخي، الفذ، المُلْهَم، حافظ الأسد.. فهو يصر على التعامل مع المدربين الرياضيين الروس لأنهم جماعة دراويش وشغيلة (على باب الله الكريم)، والأجر الذي تدفعه لهم يلفونه بين أصابعهم (صرة عرب) دون أن يعرفوا كم هو، ويبوسونه، ويضعونه على رؤوسهم وهم يقولون: (نعمة كريم).. الله يديمها نعمة ويحفظها من الزوال.

وذات مرة، بعدما خسرنا خسارة مرعبة مع إحدى الفرق الأوربية بكرة القدم، قال لي واحد من هؤلاء المعجبين بحكمة القيادة السورية، (الذين أطلق عليهم الشعب السوري في سنة ٢٠١١ لقب: المنحبكجية)، وهو واثق، بينه وبين نفسه، من أنني إنسان ساذج، وأهبل، أصدق أي كلام يقال لي:

- الله وكيلك يا أستاذ، الروس يرسلون إلينا المدرب ليعمل لدينا طيلة السنة مقابل كيس من الحمص!

خبير روسي

ولكن الحقيقة التي لا يمكن أن يأتيها الشك، أو الزيغُ، من بين أيديها، أو من خلفها، هي أن الخبراء العسكريين الروس الذين كانوا- على أيام الاتحاد السوفييتي-

يحظون بنعمة الإيفاد إلى سورية، كانوا يفرحون فرحة أقرب ما تكون إلى فرحة ولد صغير في ليلة عيد الفطر السعيد إذا كان أهلُه قد أجبروه على صيام الأيام الثلاثين من رمضان الذي يصادف في فصل الصيف!..

ففي سورية كانوا يقبضون رواتب وتعويضات عالية، وعملهم في الثكنات والمراكز العسكرية كان قليلاً، وذا طبيعة استشارية، ويجري ضمن المكاتب المكيفة، والحكومة السورية تخصص لهم بنايات في مناطق سكنية راقية كبنايات الروس في حي التجارة بدمشق، مثلاً..

وأما العساكر السوريون، وبالأخص أولئك الذين يضطهدهم النظام الاستبدادي، فيعيشون عيشة الشقاء والركض والغبار وقلة القيمة.. والواحد من الضباط أو صف الضباط السوريين كان يحكي لأهله وأقاربه، حينما يزورهم في الإجازة، أو المبيت، عن هذا التمييز (القريب من العنصري) الذي تمارسه القيادة بين الجنود السوريين والخبراء الروس.. وقد رويت لنا طرفة في هذا المجال، مفادُها أن أحد الأطفال، في المرحلة الابتدائية، وهو ابن صف ضابط متطوع في الجيش العربي السوري، سألته معلمة الصف:

- حينما تكبر.. ماذا تريد أن تكون يا بني؟

فقال لها على الفور:

- خبير روسي!

طقس اجتماعي

إذا كان الصيام ركناً من أركان العبادات في الدين الإسلامي الحنيف، فهو، في الوقت ذاته، طقس اجتماعي جميل، يمارسه الناس بمتعة، رغم المشقة الناجمة عن الجوع والعطش و(الخَرَم) عند المدخنين.... ولا سيما في سنيِّ الصيف، وقد أصبحت له طقوس وعادات وتقاليد راسخة.. وامتلأت الذاكرة الاجتماعية بعدد كبير من الحكايات والطرائف الجميلة التي تتمحور حول الصيام..

من هو الأفهم؟

من هذه الطرائف أن رجلاً، في زمن قديم، دُعي لتناول طعام الإفطار عند صديق له في قرية مجاورة.. ولم تكن وسائط النقل الحديثة معروفة، فامتطى حماره، وذهب إلى تلك القرية قبيل موعد الإفطار بقليل..

استقبله صديقه وأهل صديقه بالحفاوة والترحاب، وأخذ أحدُهم الحمار منه، وربطه على المعلف، لكي ينال، هو الآخر، نصيبه من الطعام، ودخل الرجل، بصحبة القوم إلى الإيوان، حيث مُدت سفرة كبيرة، عليها ما لذ وطاب من أطعمة دسمة، وحلويات، وفواكه، عدا المياه، والسوس البارد، والتمر هندي.. إلخ.

تناول الرجل الطعام باعتدال، وحمد الله، وشكر صديقه على الدعوة.. ولكن صديقه، والآخرين، لم يقبلوا بذلك، وبدؤوا يُكرمونه بأن يقول له أحدهم، مثلاً:

- كُلْ دعبولة الكبة المقلية هذه كرمى لخاطري.

ويقول له آخر:

- ستأكل ضريع الخروف التحتاني المسلوق كرمى لي أنا.

ويناوله ثالث قطعة من حلوى سوار الست، ويقشر له رابع موزة صومالية.. والكل يقول له (كرمى لخاطري).. وهو يخجل منهم، ويأكل، حتى انتفخ بطنه، وأحس وكأنه موثق بالأغلال، لا يستطيع حركة ولا تنفساً..

المهم.. انتهى الوقت المخصص للزيارة.. فوقف الرجل مستأذناً بالانصراف.. واتجه إلى حيث رُبط حماره، دخل الإسطبل، فوجد الحمار متوقفاً عن تناول العلف.

حمل كمشة كبيرة من التبن بقبضة يده وقدمها للحمار وهو يقول له:

- كُل كمشة التبن هذه كرمى لخاطري!

فيرفض الحمار أكلها برفع رأسه إلى الأعلى. فيغرف شيئاً من الشعير، وشيئاً من البرسيم ويقول:

- لا يجوز يا صديقي، كُلها لأجلي أنا.. معقول ألا يكون لي خاطر عندك؟!

فيكرر الحمار رفضه.. حتى قال له، أخيراً:

- قسماً بالله العظيم أنت أفهم مني!

آخ على سحبة سيجارة

كان أبو رستم الحجي واحداً من عتاة المدخنين في المنطقة كلها، إذ لم يشهد أحد من أهل بلدتنا أنه رآه مرة بفم خالٍ من السيجارة.. إلا في نهارات رمضان.. وكان الاشتهاء على التدخين، أثناء الصيام، يحوله إلى شخص عصابي، لا يعرف كيف يُمضي نهار الصيام، وهو، في العادة، لا يفطر على ماء، أو على حبات تمر، أو كأس من التمر هندي، أو على أي شيء.. سوى لفافة التبغ (السيجارة) التي كان يضعها في فمه، ويُحكم الإغلاق عليها قبيل المغرب بست أو سبع دقائق، ويمسك بالولاعة باليد الأخرى، وهنا يمر الوقت بطيئاً، بطيئاً.. وما أن يقول المؤذن (الله أكبر) حتى تكون سيجارته مشتعلة، وغبة طويلة عريضة غميقة من الدخان تتسلل إلى أحشائه دفعة واحدة.

وكانت له زوجة ظريفة، تمضي السنة بطولها وهي تلعب بأعصابه، فتقول له، مثلاً، بعد عيد الفطر بشهر، متصنعة الحكمة والخضرمة..

- ايه يا زوجي أبو رستم.. الدهر دولاب.. تخيل، بالأمس القريب كان عيد الفطر.. الآن لم يبق على قدوم رمضان القادم سوى عشرة أشهر.. الله يعيده علينا بالخير..

فيقب أبو رستم غاضباً، ويقول لها:

- الله يعيده عليك.. يخرب بيتك على بيت الرجل الذي يحويك في بيته.. بودي أفهم.. أيش جابرمضان على بالك الآن؟

وذات مرة.. في يوم التماس شهر رمضان المبارك.. كان أبو رستم راكباً على الحمار، وكانت أم رستم وراءه.. وفجأة سمعا صوت إطلاق المدفع.. مما يعني ثبوت الصيام في اليوم التالي.

وفجأة، أحس أبو رستم بجسد أم رستم يرتجُّ.. فعرف أنها تضحك، ربما لأنها تتخيل نفسية زوجها النزق في هذه اللحظة.. فما كان منه إلا أن ضربها برسن الحمار وقال لها:

- شمتانة فيني يا بنت الـ.. ؟ شمتانة فيني مو؟

الروزنامة

يحكى عن أبي رستم أنه ذهب إلى المكتبة في مطلع إحدى السنين الميلادية وقال للبائع:

- أريد روزنامة ما فيها رمضان!

ولم يعثر على طلبه، بالطبع، فاشتراها، وذهب إلى البيت واقتلع الورقات الخاصة برمضان المبارك منها. وبعدها صار يقول لكل مَن يزوره في البيت:

- هل تراهن على أن رمضان غير موجود في الروزنامة؟

(ملاحظة: لعله يتقاطع، في هذا، مع مدرب كرة السلة الروسي الذي كان سيطلب من المسؤولين السوريين تأجيل، أو إلغاء رمضان.. ذاك المدرب عن جهل، وأبو رستم عن دعابة)!

أذان المغرب

ومما روي عن أبو رستم أنه كان جالساً في ساحة الحارة قبيل أذان المغرب، وقد جهز، كعادته، السيجارة وجلس ينتظر.. وإذا بولد يعبر المكان مسرعاً، فاستوقفه وسأله:

- ألست أحمد ابن أبو أحمد الطبجي المكلف بإطلاق مدفع الإفطار؟

قال الولد:

- بلى.. ائمر عمي.. هل تريد شيئاً؟

قال أبو رستم:

- إي والله. أريد. سلم لي على والدك وقل له أن يضرب المدفع اليوم قبل خمس دقايق من الموعد النظامي.

قال الولد ببراءة منقطعة النظير:

- لا يجوز يا عمي، إن والدي لا يحق له أن يضرب المدفع قبل أن يسمع أذان المغرب من الجامع الكبير.

وتابع الولد طريقه، فقال أبو رستم لجلاسه:

- هذا الجيل قليل تربية، حاشاكم. يعني.. أنا من جيل والده، المفروض به أن يقول لي:

- أمرك يا عمي تكرم عينك يا عمي.. أليس أحسن من هذه المجاقرة و(يجوز) و(لا يجوز)؟ تفو على هذا الجيل، تفو.

ميتة رائعة

كانت علاقة (أبو رستم) بحماته سيئة للغاية، وهو يزعم، في جلساته الخاصة مع أصدقائه المقربين، أن زواجه من السيدة أم رستم لم يأتِ مصادفة، كما خُيل إليه في البداية، وإنما بتخطيط رهيب من حماته التي نصبت له أحابيل محكمة، حتى أوقعته، وجعلته يأتي إليها صاغراً، ويرجوها- مع أنه أفضل منها ومن ابنتها وعائلتها- أن تتكرم فتوافق عليه صهراً لها (هذا كله بوجود زوجها الذي لا شوكة له ولا دباحة..)..

ومما كان يزيد في حنق أبو رستم من حماته، أن الحظ كان يرافقها أنى اتجهت، بينما كان حظه هو يحرن به مثل حمار قبرصي عنيد.

المهم.. في يوم من الأيام.. وبينما كان المسلمون يلتمسون هلال شهر رمضان المبارك.. ماتت حماته.

أثناء التعزية همس لبعض رفاقه:

- الحظ!.. ماتت دون أن تصوم يوماً واحداً.. ايه..

وهَمَّ أبو رستم بقول شيء ما.. ولكنه استدرك فقال:

- على كل حال الأعمار بيد الله..

ثم تجرأ وقال:

- انتظروا حتى يأتي أجلي، وانتبهوا للتوقيت.. مؤكد أنني سأموت في صبيحة عيد الفطر.. أخي الدنيا حظوظ والسلام!

* * *

صمود الجبهة الداخلية

كتب إياد جميل محفوظ:

روى لي هذه الواقعة الغريبة رجل أعمال سوري يقيم في دولة الإمارات منذ أمد بعيد، ويتمتع بمصداقية وحضور واسعين بين أبناء الجالية السورية. قال:

- دُعيتُ منذ عدة سنوات، ونخبةٌ من رجال الأعمال السوريين المقيمين في الإمارات إلى اجتماع خاص جداً.. الهدفُ منه الاحتفاء بشخصية حكومية سورية رفيعة، وتتمتع بدرجة كبيرة جدا من الأهمية، في أحد الفنادق الفخمة في دبي.

في الاجتماع.. دارت حوارات ونقاشات شتى حول الاقتصاد، والاستثمار، وعملية التحديث التي تجري في سورية بقيادة الرئيس بشار الأسد.

ثم استأذن أحدُ الحاضرين وسأله عن الوضع السياسي في سورية، وما هو الموقف الآن بعد مرور عدة أشهر على حرب تموز (يوليو)الشهيرة التي كان طرفاها حزب الله وإسرائيل.

أجاب الشخص (المهم جداً) بأن سورية كانت، خلال حرب تموز، قاب قوسين أو أدنى من الدخول في مواجهة عسكرية مباشرة مع العدو الصهيوني، ذلك على الرغم من معرفتنا المسبقة بأن الدبابات المعادية ستتمكن من الوصول إلى أبواب دمشق خلال ساعتين من بدء الاشتباك!!!!..ولكن القيادة السورية تراهن على متانة الجبهة الداخلية ووعيها.. ونحن على قناعة تامة بأن الشعب سيهب للتصدي للعدوان، وسيتفانى في الذود عن النظام وحمايته!!..

وأضاف صديقي رجل الأعمال يقول:

- تبادلنا نحن الحاضرين، أشد علامات الاستغراب والدهشة من هذه التصريحات الفائقة الغرابة.. وكان هذا في سنة (٢٠٠٦)، فما بالك أن بعض المسؤولين يرددون الكلام نفسه في أواسط سنة (٢٠١٢)، بعد ما ضحى الشعب السوري بعشرين ألف شهيد، والحبل على الجرَّار، ليس من أجل (الذود عن النظام وحمايته، كما تفضل المسؤول).. وإنما من أجل التخلص منه!

* * *

النفاق

كتب خطيب بدلة:

حيثُما يوجدُ القمع، والقهر، والبطش، وكم الأفواه، ومصادرة الحريات، وملاحقة الأحرار.. يوجدُ: النفاق، والكذبُ، والمراوغة، والدجل، والزعبرة، والرياء.. وفي حين يغادرُ الشرفاء، الأحرار، ذوو الضمير الحي، والرأي المغاير لرأي الجوقة، بلادهم، هاربين من جحيم الديكتاتورية.. ويجلسون في المنافي ليكتبوا مذكراتهم المريرة عن الحضيض الذي تهبط إليه بلادهم الغالية، بسبب الاستبداد وحكم العسكر.. يجلسُ المنافقون ليكتبوا التقارير الكيدية بأبناء بلدهم الطيبين، وليكرزوا العبارات الإنشائية، الخالية من أي طعم، أو لون، أو رائحة.. في مديح الديكتاتور، وفي الدعاء لله جل جلاله أن يمد في عمره، ويشده بالصحة والعافية، ويبدد شمل معارضيه، ويجعل ألفهم واحداً، أو نصف واحد.

يتمتع المنافقون، عادةً، بالخبث، والملعنة، والمراوغة الزئبقية، وواحدهم، من شدة خبثه، يستطيع أن يصطحبَ أذكى أذكياء القوم إلى البحر، ويعود به عطشاً.. ولكنه، حينما يبلغ ذروة النشوة الناجمة عن سيره في ركب الديكتاتورية الفخم، المهيب، وتعاظم إحساسه بأن حظه السعيد قد جعله متواجداً في أحد الأطواق القريبة من (نجم) الديكتاتور المنير، تراه يخرج عن النصوص، والألواح، والعهود، والمواثيق التي يَطّلع عليها بوصفه رجلاً مرضياً عنه من قبل (المعلم)، ويجلس بين الناس، ويزلُّ لسانه بذكر الحقيقة!!.. كما حصل مع الشخص الذي تحدث عنه صديقي إياد محفوظ.. الذي قال إن دبابات إسرائيل لقادرةٌ أن تكون

قرب دمشق في زمن قصير..

هذا الكلام.. كشف عورة الممانعة التي يقوم عليها النظام السوري برمته..

ولكن هل يرمي الرجل المسؤول المنافق سلاحه بهذه السهولة؟.. أبداً، بدليل أنه، بمجرد ما أحس بالعطب، استدرك، وعاد يتحدث بالعبارات الإنشائية المعلوكة.. ككلامه عن الجبهة الداخلية المتماسكة، واللُحمة الوطنية الرائعة، والتفاف الشعب حول القائد.. إلى آخر ما هنالك من أكل الهوا..

الصحفي الجريء

تحدث صديق العمر الأديب الراحل تاج الدين الموسى، في إحدى قصصه المتميزة، عن صحفي اكتسب شهرة واسعة، بسبب تمرسه في العمل الصحفي، وخبثه الشديد، وتمتعه بحالة هجومية تجعل الآخرين الذين يقعون في مرمى تحقيقاته يرتجفون ذعراً، والشاطر فيهم هو من يكون (الصحفيُّ الجريء) راضياً عنه، أو يعيش معه- على الأقل- في حالة هدنة.

ويأتي مواطن قُتل أبوه في أحد المستشفيات، بخطأ طبي، لمقابلة الصحفي الجريء، وإطْلاعه على حقيقة ما جرى، وبمجرد ما يذكر له عنوان الحادثة، يستنفر الصحفي، ويبدي استعداده لأن يلعن سنسفيل أجداد الذين قتلوا والده الطيب..

وحينما يُخبره المواطن بأن هذا حصل في مشفى (س) الجراحي، ينتفض الصحفي ويستبعد هذا الاحتمال، فهو يعرف صاحب المشفى، ويشهد بأن سمعته حسنة.. فيقاطعه المواطن قائلاً بأن الحق على الطبيب الجراح (ق) الذي أجرى العملية، فينط الصحفي ولا يحط، باعتبار أن هذا الطبيب هو خال خطيبته، ومن غير المعقول أن يكتب ضده..

ويرفض الصحفي أن يكتب ضد طبيب التخدير، فهو جاره، وضد طبيب التحليل المخبري، لأنه شريكه في لعبة الطرنيب، أو أن يتناول تقصير الممرضات

باعتبار أنهن (ملائكة الرحمة)..

وبينا هما على هذه الحالة إذ يأتيه خبر بأن زبالاً في إحدى حارات المدينة مقصر في عمله، فيشمر عن سواعد الجد، ويجهز نفسه لكي يقضي على الزبال وأسرته قضاء مبرماً!!

هيا إلى الحوار

خلال السنوات الأربعين الماضية استبد النظام الأمني السوري بكل مكونات المجتمع، وألغى مفردة (الحوار) من قاموس السياسة السورية..وأغلق منتديات الحوار الديمقراطي التي تشكلت في غفلة منه، أثناء توريث الحكم من حافظ إلى بشار، كمنتدى جمال الأتاسي، ومنتدى رياض سيف، ومنتدى نوال اليازجي، والثلاثاء الاقتصادي.. ولاحق الداعين إلى (الحوار)، وسجن بعضهم، وطارد بعضهم الآخر ضمن الحدود السورية وخارجها..

ولكن.. وبمجرد ما انطلقت الثورة الشعبية السورية في أواسط آذار (مارس -٢٠١١)، وأحس النظام الأمني بالعطب، انطلقت الجوقة السياسية و(الإعلامية) السورية تصيح بصوت واحد: هيا إلى الحوار!..

(ملاحظة١: أدرك الكثيرون من مثقفي سوريا المعارضين للنظام أن المقصود بهذه الدعوات هو أنْ تتوقف الثورة مقابل تنازُل بعض رموز السلطة وجلوسهم مع بعض الأشخاص الذين تنتقيهم الأجهزة الأمنية بدقة، والتحاور معهم بشأن أمور خدمية لا تقدم ولا تؤخر.. فرفضوا المشاركة في الحوار).

(ملاحظة ٢: حُكي، والعهدة على الحاكي، أن أحد المحللين السياسيين الاستراتيجيين الذين استكراهم النظام للدفاع عن أباطيله، من فرط ما زعق، أثناء اتصال له مع قناة الجزيرة، بأن الحكومة تدعو إلى الحوار، والمعارضة المأجورة ترفض الحوار.. انفتق.. ونُقل على إثرها إلى المشفى، وأجريت له عملية «الفتاق» بنجاح!).

لا يخشى في الحق لومة لائم

حدثنا الصحفي (ص)، مجالسنا في مقهى الورود، بحديثٍ أوحى لنا بأحد أمرين، الأول هو أن المخابرات السورية مقصرة في عملها، بدليل أنها لم تعتقله، ولم تمسح به الأرض، حتى الآن، رغم جرأته التي تبلغ حد الفجور، أو أن النظام السوري قد تطور (من ورانا) وأصبح يقبل النقد مهما كان عنيفاً.

قال:

- البارحة، يا شباب، اتصل بي رئيس مكتب الفضائية السورية في مدينتنا، وطلب مني الحضور إلى الاستوديو، لإجراء مقابلة معي حول دور الإعلام في الأزمة..

فقلت له:

- خسئتم خسئتم!!.. أنا أكبر بكثير من أن ألتقي بكم. قال لي (له يا أستاذ صاد.. لماذا؟) قلت لأنكم فاسدون، مرتشون، مقصرون في عملكم، عيب عليكم أن تسموا أنفسكم إعلاماً.. إنكم ترون الفساد المستشري في مؤسسات الدولة ودوائرها، فتسكتون عنه، لا بل تُظهرون للناس الصورة العكسية، فتوهمونهم بأن الإنتاج وفير، والخطط الإنتاجية في المؤسسات ذات الطبع الاقتصادي تُنَفَّذُ بحذافيرها، ومديرو المؤسسات، بدلاً من أن يختلسوا أموال الدولة والشعب تراهم يبيعون ما ورثوه من آبائهم المرحومين ويصرفونه على مؤسساتهم..

حبسنا أنفاسنا من الدهشة والرهبة، وقلنا للأستاذ ص:

- قلت هذا الكلام كله لمدير المركز التلفزيوني؟ ؟ ألا تعرف أنه مرتبط مع الأمن الجوي والأمن العسكري والأمن السياسي؟ ألا تخشى أن يكتب بحقك تقريراً يجي به أجلك؟

قال:

- لا يا شباب؟ لست أنا من يخاف، أو يخشى في الحق لومة لائم، لقد قلت له

أكبر بكثير من الكلام الذي ذكرتُه لكم، وقبل أن أُغلق السماعة في وجهه، قلت له:

- يا حيف! يا حيف على السيد الرئيس بشار الأسد أن يكون رئيسكم.. أيها الحثالة..

الاستفتاء والبث التلفزيوني

لا توجد في الدستور السوري (الذي فَصَّلَه الجنرال حافظ الأسد على قياسه، في سنة ١٩٧٣) مادةٌ تتعلق بإجراء انتخابات لاختيار رئيس للجمهورية العربية السورية.. واستعيض عنها باستفتاء شعبي، يجري بناء على اقتراحٍ من القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، بوصفها ممثلة للحزب القائد للدولة والمجتمع، مُوَجَّهٍ إلى مجلس الشعب، يتضمن اسم الرئيس، لتأتي حصيلتُه، أعني الاستفتاء، حتماً، لصالح الرئيس المقترح، بنسبة تحتوي على أكبر عدد ممكن من التسعات (٩٩٩٩,٩٩) بالمئة..

(ملاحظة اعتراضية: في الدستور الذي فصله بشار الأسد على قياسه، أثناء الأحداث الدامية(٢٠١٢).. ألغيت المادة الثامنة التي تعطي لحزب البعث الحق في قيادة الدولة والمجتمع.. ولكن، على أرض الواقع، لم يتغير شيء البتة، وهذا يعني شيئاً واحداً، وهو أن حزب البعث لم يكن أكثر من واجهة للشُّعَب الأمنية والأسرة الحاكمة.. والأغرب من هذا كله أنه لم يظهر بعثي واحد، من أصل بضعة ملايين من البعثيين، ليحتج على إلغاء المادة الثامنة من الدستور.. فقد ذهبت كما يذهب الوسخ في نهر العاصي!!!!).

أجري الاستفتاء الشعبي لاختيار الفريق حافظ الأسد، مُفَجِّرِ الحركة التصحيحية المجيدة، رئيساً لسورية عدة مرات، اعتباراً من سنة (١٩٧٩)، وكلما انتهت مدة الرئاسة المحددة بسبع سنوات، كانت العملية تتكرر، وجماعةُ الإعلام السوري الذي أسسه الرفيق المناضل أحمد اسكندر أحمد، المستمر نهجُه حتى الآن،

القائم على استعباد الشعب السوري، واستهباله، أرادوا أن يستفيدوا من التراث العربي الإسلامي، فأطلقوا، في القرن العشرين، على عملية الاستفتاء، اسماً غريباً هو: تجديد (البيعة) للقائد..

وأبناء الشعب السوري، من شدة فرحهم على تجديد البيعة لقائدهم التاريخي، ما عادوا يذهبون إلى مراكز الاستفتاء مثلما يذهب البشرُ العاديون في كل أنحاء العالم، بل أصبحوا يذهبون على إيقاع الطبول، وترغلة المزامير، وينصبون الدبكات أمام مراكز الاستفتاء، ويلعبون بالسيف والترس والنبود.. والنسوة يزغردن ويرششن الزهور على أفواج القادمين الفرحين،.... ويكون الإعلام السوري، حينئذ، في أوج شفافيته، فلا يترك تفصيلاً صغيراً من مظاهر الفرح التي تجري أمام المراكز الانتخابية إلا ويرصدُه بأحدث الكاميرات، وتكون القناة التلفزيونية الأرضية والفضائية، في غضون أيام الفرح، قد أوقفت برامجها الاعتيادية كلها، وبدأت ببث هذه التسجيلات على مدى أيام، وأحياناً تستغرق أسابيع.

آخر بيعة

زعموا أن مواطناً فقيراً، من إحدى المدن السورية الصغيرة، كان يبيع البطيخ الأصفر، وفي يوم من الأيام كان يعاني من الكساد، ونهاره كاد ينصرم ولما تزل لديه كمية من البطيخ، فقرر التخلص منها بأي ثمن، لأنها إذا باتت لليوم التالي تفسد، فوقف في مكان مرتفع وصار يصيح: بنصف القيمة يا شباب.. آخر بيعة يا شباب.. آخر بيعة..

وفجأة ظهر رجال المخابرات (الأشاوس)، وألقوا عليه القبض، وساقوه إلى فرعهم، والصفعات والركلات تنهال عليه مثل زخ المطر، وهم يقولون له:

- فشرت ولاه حقير.. هذه ليست آخر بيعة!

الوالدة المرحومة

لا يوجد أحلى من نساء الشام، ولا أعذب من أصواتهن حينما يتحدثن بتلك اللهجة الرقيقة الممطوطة قليلاً، المبطنة أحياناً بشيء من الدعابة المهضومة.

ذات استفتاء.. حضرت إلى أحد المراكز سيدة شامية متوسطة في العمر.. قدمت هويتها لرئيس المركز وقالت له:

- زكاة عافيتك يا أخي، بدي أنتخب الرئيس حافظ الأسد.

قال الموظف وهو يضع ورقة (موافق) في الصندوق:

طبعاً.. السيد الرئيس حافظ الأسد.. لا يوجد غيره.

قالت:

- لشو غيره وما غيره دخلك؟ نحن لا نريد غيره. في حدا أخو كيفنا؟

ثم ناولته هوية أختها وقالت:

- وإذا بتريد.. أختي ضعيفة مخستكة (مريضة) بعيد من قبالي، ترجتني أنتخب السيد الرئيس حافظ الأسد بالنيابة عنها.

قال الموظف وهو يضع ورقة ثانية في الصندوق:

- من عيوني.

ناولته هوية ثالثة وقالت:

- كمان والدتي.. بدي أستفتي عنها.

قال الموظف:

- كمان والدتك مريضة ومخستكة؟

قالت:

- لا والله. بعيد عنك متوفاية.

دهش الموظف وقال:

- متوفاية؟

قالت:

- إي نعم.. لكنها أوصتني، وهي على فراش الموت، قالت لي، برضاي عليكِ يا نهلة.. إذا هالرئيس (وافق) يترشح لرئاسة هالبلد مرة وتنتين وتلاتة انتخبيه عني.. أمانة هه! وأنا يا أبني ما بخون الأمانة!

لماذا سمي صفوان.. «صفوان المعارض»؟

ما فتئت وسائل الإعلام (الأحمدي الإسكندري) تقول، وتؤكد، وتحلف الأيمان المغلظة، على أن الحياة السياسية في عصر القائد المُلْهَم حافظ الأسد تقوم على التعددية السياسية التي تتمثل بوجود أحزاب كثيرة، شيوعية، ووحدوية، واشتراكية، وناصرية (وفي وقت لاحق من عهد الرئيس بشار الأسد كسب القومي السوري شرفَ اللحاق بهذا الركب).. ولا شك في أن سِرَّ روعة تلك الأحزاب هو أنها، كلها من دون استثناء، متفقة مع حزب البعث العربي الاشتراكي بالرأي، وبالمواقف الثورية المناضلة، وفي محبتها غير المحدودة للقائد التاريخي، الملهم.

طوال أكثر من ربع قرن على قيام الجبهة الوطنية التقدمية لم يحصل خلاف في الرأي بين الأحزاب والسلطة.. ولكن يبدو أن الشيطان الرجيم- الله يلعنه إلى يوم الدين- لا يسرُّه أن يرى البشر يعيشون في وفاق ووئام.. فسول لأحد قادة أحزاب الجبهة، واسمه- على سبيل الافتراض- صفوان، أن يخربط الشغل.. ويضع في الرز بصلاً.. فوقف في أحد الاجتماعات، وقال، على نحو علني، ومن دون لف أو دوران، أو مواربة:

- أنا أعارض إجراء الاستفتاء على السيد الرئيس!

كان يوجد في قاعة الاجتماعات، كالعادة، عدد كبير من رجال الأمن، عدا عن كون بعض أعضاء قيادات بعض الأحزاب مخبرين لبعض الفروع.. ولذلك فقد أرعبت الجملة التي قالها السيد صفوان الجميع، فبلعوا أرياقهم بصعوبة، خوفاً،

وهلعاً من العقابيل المحتملة لهذا الكلام الخطير، واشرأبت أعناقهم، وتحولت أبصارهم كلها باتجاهه.. وقد اعتقدوا أن أجله قد دنا، وأن الذباب الأزرق لن يعرف له طريقاً بعد هذا الموقف..

وأما صفوان، فقد رسم على وجهه ابتسامة (واثق الخطوة يمشي ملكاً)، وقال:

- وأطالب بأن يتم الاستفتاء عليه.. مرة واحدة وإلى الأبد..

عبارته الأخيرة أشعلت موجة من اللغط في القاعة.. وأصر الآخرون كلهم على إجراء الاستفتاء في موعده.. وهو بدوره بقي معارضاً لعملية الاستفتاء، ومصراً على عبارة (إلى الأبد)..

ومن يومها مشى عليه لقب:صفوان المعارض!

فواتير

بسبب سيطرة رجال المخابرات على الدوائر والشركات والمؤسسات الحكومية، ودأبهم على سرقتها وابتزازها، بأشكال مختلفة.. وبسبب تفشي الفساد في مختلف أنحاء الهرم الإداري والسلطوي، فقد كان محاسب الإدارة في كل واحدة من هذه الدوائر والمؤسسات يقع، على مدار السنة، في مآزق كثيرة، إذ يضطر لصرف فواتير غير نظامية، من أجل تغطية سرقات المدير العام التي يتقاسمها مع المراكز الأمنية الشرهة إلى المال العام، إضافة إلى بعض الحصص الصغيرة التي يتقاسمها المحاسب نفسه مع بعض أعضاء لجان المشتريات استناداً إلى المثل القائل بأن مَن يشتغل في تحضير السم الهاري.. لا بد له أن يمص إصبعه!

وكانت أفضل طريقة لتغطية هذه السرقات هي إقامة الاحتفالات الشعبية في (المناسبات القومية والوطنية).. كعيد الثامن من آذار، وعيد ميلاد حزب البعث، ومناسبة حرب تشرين التحريرية (التي حررت الإرادة القتالية فقط) في السادس من تشرين الأول / أكتوبر.. والعيد الأكبر، عيد الحركة التصحيحية المجيدة في السادس عشر من تشرين الثاني.. فتشترى الأعلام، والصور، وحبال

الزينة المكتظة باللمبات الكهربائية (مع أن الكهرباء كانت قلما تشتعل.. طيلة حكم حافظ الأسد)، وتُدفع بعض الأموال للطبالين والزمارين ولاعبي السيف والترس والنبود، وخَطَّاطي اللافتات القماشية.. والباقي يُسرق.. ولا يوجد مفتش مالي (أخو أخته) في جمهورية الرعب السورية كلها يجرؤ على تدقيق هذه الفواتير أو التشكيك في نزاهتها..

وإذا كانت هذه الأعياد تصادف مرة في السنة، والسرقات التي تتحصل منها تفي بما يلزم للشباب ليعيشوا عيشة تليق بكونهم حكاماً مطلقين للبلاد.. فإن الرزقة الكبرى، التي تجعل الواحد من هؤلاء الطغاة الصغار يحصل على قرشين نظيفين يرفعهما لغدرات الزمان إنما هي الاحتفال، مرة كل سبع سنوات، بتجديد البيعة للقائد التاريخي!..

من هنا نستطيع أن نفهم سبب اعتراض (الشباب) جميعهم على اقتراح السيد (صفوان المعارض) حينما سكت دهراً ونطق كفراً فقال:

- تعالوا نستفتي على السيد الرئيس مرة واحد وإلى الأبد.. فقالوا له بلسان حالهم:

- يخرب بيتك كم أنت كذاب ودجال ومزاود يا صفوان المعارض.. تريد أن تبيِّض وجهك مع الرئيس.. وفي الوقت ذاته تقطع رزقنا؟ يا أخي قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق!

* * *

خلاصات

كتب خطيب بدلة:

في معرض الحديث عن الديكتاتوريات لا يجوز أن تقول إن الديكتاتور الفلاني (أحسن) من الديكتاتور العلاني.. فإذا شئت المقارنة، يجدر بك أن تقول إن الديكتاتور الفلاني (أقل سوءاً) من الديكتاتور العلاني!

* **

لا يجوز لمن يقف إلى جانب حق الشعوب في التحرر أن يطالب بالحرية لشعب ما، ويستنكرها على شعب آخر.

أحد الأصدقاء المشاكسين على الفيسبوك يعرفُ مدى حماسي لثورة الشعب السوري من أجل الحرية والكرامة.. فأرسل إلي تعليقاً يتضمن تلميحات إلى ثورة البحرين.. فكتبتُ له بكل وضوح وإيجاز:

- أخي، مرحبا.. أنا مع ثورة شعب البحرين. نقطة انتهى!

***

في النظام الرأسمالي قاعدة ذهبية يعمل بها الجميع دون استثناء تقول:

- الزبون دائماً على حق.

أقول، مع تحوير بسيط:

- الشعوب دائماً على حق.

***

جمعتني المصادفة مع مجموعة من الثوار السوريين.. ودار بيننا حوار حول الثورة، ومستقبل البلاد.

بالمصادفة ورد ذكرالرئيس العراقي السابق صدام حسين.. فشرع أحدُهم (وهو من الطائفة السنية) يترحم عليه.. فقلت له:

- الظاهر أنك تثور على بشار الأسد لأنه ديكتاتور (علوي).. وتترحم على صدام حسين لأنه ديكتاتور (سني)!..

***

وقبل حوالي سنة.. كنت أسهر مع بعض الأصدقاء المثقفين، وجاءت سيرة صدام حسين.. فانبرى أحد مؤيدي النظام السوري (وهو من الطائفة العلوية) للدفاع عن صدام باستماتة غريبة..

أثناء المناقشة همس لي صديق يجلس بالقرب مني، قائلاً:

- افرطها.. صاحبك لا يريدك أن تتمادى في الحديث عن ديكتاتور العراق لئلا يمتد الحديث إلى نقد الديكتاتوريات كلها.. فتصل إلى حيث لا يريدُك أن تصل.

***

الانفجار الذي هز مبنى الأمن القومي بدمشق أسفر عن مقتل بعض رؤوس (خلية الأزمة) في سورية، وهم: داود راجحة وزير الدفاع، وآصف شوكت زعيم الأمن السوري برمته، وهشام الاختيار رئيس مكتب الأمن القومي، وحسن توركماني رئيس أركان الجيش السوري.

كتبتُ على الفيسبوك الخلاصة التالية:

خلية الأزمة في دولة ديمقراطية تتألف من:

خبير اقتصاد واستثمارات- خبير مال وأعمال- خبير مصارف- خبير خدمات وبنى تحتية- خبير قانون وعلاقات دولية- خبير نفسي- خبير اجتماعي- خبير إعلامي- خبير عسكري- خبير استخبارات.

خبير عسكري- خبير أمني- خبير متفجرات وكاسحات ألغام- خبير مداهمة وخلع أبواب - خبير حرب شوارع- خبير تحقيق ونزع اعترافات- خبير كهربائي- خبير إعلامي- خبير تجارة مواد ممنوعة- خبير سوق سودا- خبير حرق منازل- خبير نقل مسروقات.

* * *

خطيب بدلة

إدلب ١٥ تموز ٢٠١٢

براءة في غير محلها

لعل مشاركتي المتواضعة في هذا الكتاب تُطَهِّرُ روحي وتحررها من كوابيس الخوف والجبن التي مافتئت تطوقها من الجهات كافة منذ شهقتها الأولى.. وتعيد إليها شيئاً من السكينة والرضا قبل أن تجنح أيام العمر إلى زوال.. لا أسف يجدي بعده ولا ندم.

* * *

إياد جميل محفوظ

العين ١٢ آيار ٢٠١٢

فهرس

مقدمة الكتاب... ٧
صديقي إياد ٩
صديق مال أنا ١١
رموز المتعاملين.. ١٣
الجماهيرية ١٧
أنظمة ظريفة طريفة ١٩
جمعية التنمية الاجتماعية ٣١
سياسة المعلاق الكبير.................................... ٣٣
حراك سياسي ٣٧
جذور الخوف.. ٣٩
تطاول على الذات الرئاسية ٤٣
الوليمة.. ٤٥
دولار ٥١
بالروبل.. ٥٣
لهجات عربية ٥٧
ترجمة فورية ٥٩
منظمة الطلائع.. ٦٣
شجون حكومية ٦٥
هدية متواضعة ٧١

الشبيح الأكبر ٧٣
زيارة سياحية ٧٥
على رأس عمله ٧٧
فرع واحد ٨٧
بالمئات ٨٩
حلب ٧٩ - ١١ .... ٩٥
يسوق في إدلب ٩٧
النبلاء الستة ١٠١
تداعيات ١٠٥
قرار حكومي ١٠٧
حلف الهزائم ١٠٩
صمود الجبهة الداخلية ١١٧
النفاق ١١٩
خلاصات ١٢٩
براءة في غير محلها ١٣٣

خطيب بدلة

قاص وصحفي وسيناريست، من مواليد معرتمصرين بمحافظة إدلب شمالي سورية سنة ١٩٥٢.

يحمل شهادة الإجازة في العلوم الاقتصادية من جامعة حلب سنة ١٩٧٦.

أعماله الأدبية المطبوعة:

١- حكى لي الأخرس- سخريات صغيرة ١٩٨٧. (دار الأهالي دمشق).

٢- عودة قاسم ناصيف الحق- قصص ١٩٨٩. (وزارة الثقافة دمشق).

٣- إمرأة تكسر الظهر- قصص ١٩٩٤. (دار الينابيع دمشق).

٤- وقت لطلاق الزوجة- قصص ١٩٩٨. (وزارة الثقافة دمشق).

٥- حادث مرور- قصص ٢٠٠٢. (الدار الوطنية دمشق).

٦- التداوي بالأدب - قصص ٢٠٠٥. (دار الحوار اللاذقية).

٧- إمبراطورية المجانين الديمقراطية العليا- قصص٢٠٠٦. (دار نون ٤ بحلب).

٨- حب بعد الخمسين- قصص ٢٠٠٨. (دار نون ٤ بحلب).

٩- سيرة الحب والفقر والنحس ونكد العيش- مسرودات قصصية ٢٠٠٩. (دار مي- دمشق).

١٠- احترامي سيدي المواطن- كلام في الديمقراطيات المفقودة٢٠١٠ . (دار نون ٤ بحلب).

١١- المستطرف الأزرق - (ديوان الطرائف المعاصرة) ٢٠١٠. (دار نون ٤بحلب).

١٢- المستطرف الأخضر - (ديوان الطرائف المعاصرة) ٢٠١١. (دار جداول بيروت).

١٣- عصفورية - قصص ٢٠١١. (دار نون ٤ بحلب).

مؤلفاته الأخرى:

إعداد كتاب «الساخرون- نماذج من القصة الساخرة في سورية» ١٩٩٢. (دار الأهالي دمشق).

مؤلفات عنه:

كتاب «تجارب جديدة في القصة السورية - عالم خطيب بدلة السردي»، للناقد محمد محي الدين مينو - ٢٠٠٥. (دار ملهم بحمص).

كتب أعمالاً تلفزيونية كثيرة (حوالي ٢٠٠ حلقة) وأعمالاً إذاعية (حوالي ٧٠٠ حلقة).

* * *

إياد جميل محفوظ

ولد في حلب (١٩٥٦/٠٥/١٢).

تخرج في جامعة حلب عام (١٩٨٦) مهندساً مدنياً.

عمل مديراً لمؤسسة مقاولات كبرى بمدينة العين في دولة الإمارات العربية المتحدة، ابتداءً من عام (١٩٩٠)، ومؤخراً أسس شركته الخاصة في مدينة العين.

مارس الرياضة سنوات طويلة في نادي الاتحاد الحلبي، وفي منتخب سورية الوطني لكرة السلة، وشارك في كثير من البطولات العربية والدولية بين عامي (١٩٧٥و ١٩٨٦).

أسس مجلس الأعمال السوري في مدينة العين في دولة الإمارات العربية المتحدة عام (٢٠٠٥)، ثم انتخب رئيساً لمجلس إدارته حتى عام (٢٠١١).
أسس عام (٢٠٠٦) جائزة الدكتور جميل محفوظ للإبداع القصصي في سورية وهي جائزة خاصة بالقصة القصيرة.

تم اختياره ضمن كتاب « ينابيع الكلام « قصاصون سوريون في الإمارات، للأديب عزت عمر، وزارة الثقافة، أبوظبي (٢٠٠٩) .

تم اختياره ضمن كتاب « أدباء من حلب « في جزئه السادس، تأليف مجموعة من الأدباء، دار الفرقان للغات، حلب (٢٠١١) .

دَرَسَ أعماله القصصية عدد من النقاد السوريين والعرب، ونشرت هذه الدراسات في الدوريات والمجلات الأدبية المحلية والعربية.

ينشر قصصه في كثير من المجلات الثقافية السورية والعربية.

* * *

صدرت له المجموعات القصصية التالية:

١ - أحلام الهجرة العكسية – دارالبارودي - بيروت ٢٠٠٤

٢- بين فراغين - دار البارودي - بيروت ٢٠٠٥

٣- سياحة شرقية - دارالقلم العربي - حلب ٢٠٠٦

٤- ينابيع الحياة - دار نون ٤- حلب ٢٠٠٧

٥- إيقاعات الروح المنسية - دار نون ٤- حلب ٢٠٠٨

٦- الشاطئ الآخر - دار نون ٤- حلب ٢٠٠٩

٧- حافلة بلا ذاكرة - دار الحوار - اللاذقية ٢٠١٠

الإعداد:

١- ريادة في التربية - دار الفجر - أبو ظبي ٢٠٠٦

لوالده الدكتور جميل محفوظ.

كتب خطيب بدلة:

برأيي المتواضع.. أن أجمل الطرائف والسخريات، وأكثرها ظرفاً، وعدلاً، وإنصافاً، هي تلك التي يسخر الكاتبُ فيها من نفسه، حتى ولو على سبيل الدعابة.. ولنا في كبير الهجّائين العرب الجاهليين "الحطيئة"، الذي هجا نفسه، أسوةٌ حسنة.

صديقي، وشريكي في هذا الكتاب، الأستاذ إياد جميل محفوظ، لا يشذ عن هذه القاعدة، فهو يفتتحُ كتابه بطرفة من هذا القبيل..

وللتوضيح، ولكي نفهم طرفته جيداً، أقول: إياد رجلٌ طويل القامة (وقد كان لاعب كرة سلة وما أدراك!).. وقد أفقده الزمانُ جزءاً كبيراً من شعر رأسه على نحو مبكر..

ISBN 978-91-87373-07-7
9 789187 373077

دار نون